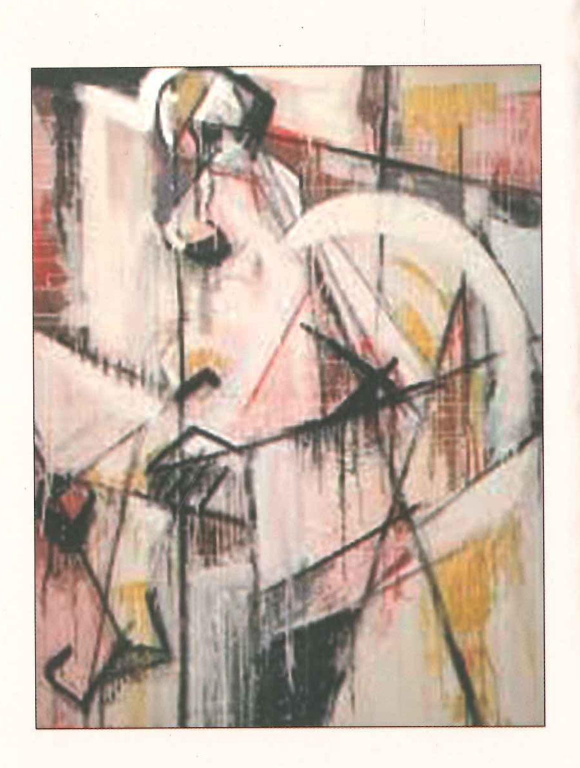
فهد حسين

المثقف وأفق الانعتاق





المثقف وأفق الانعتاق

الكتاب: المثقف وأفق الانعتاق

المؤلف: فهد حسين

الطبعة الأولى: ٢٠١٩

لوحة الغلاف: للفنانة الأمريكية جوديث غودوين

تصميم الغلاف: أمينة صلاح الدين

رقم الإيداع بإدارة المكتبات العامة: ٤٨٤/ د.ع/ ٢٠١٨



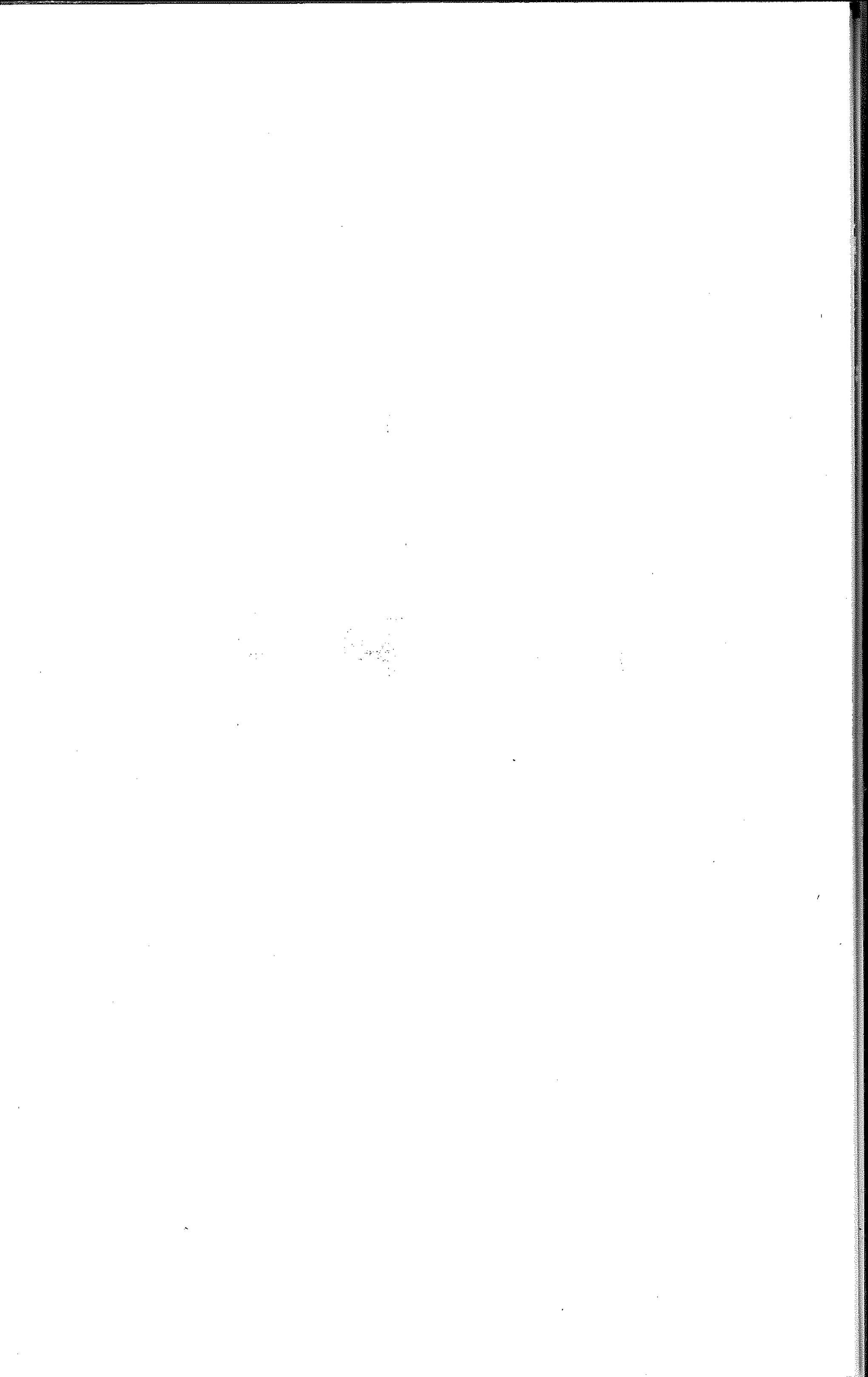
طباعة . نشر . توزيع

دمشق/ جوال: ٩٤٤٦٢٨٥٧٠- ٠٠٩٦٣

Email: akramaleshi@gmail.com

فهد حسين

المثقف وأفق الانعتاق



المحتويات

الإهداء

إلى الحاجة فاطمة علي شبيب (والدتي)

التي ترقد هناك بعيداً عن كل الأضواء المزيفة

إلى أمي التي كانت تقول دائمًا:

"أريدك ناجحًا في حياتك

صادقًا في عطائك

محبًا لمجتمعك"

فلا أدري إن كنت قد حققت وصيتك

فهد حسين

مقدمة

في البدء عليّ أن أقدم الشكر إلى أستاذي الدكتور الناقد صالح هويدي ، الذي أقترح علي القيام بإعداد ورقة حول دور المثقف في العالم العربي في ظل هذه الأحداث التي كانت ولاتزال تعصف بعالمنا منذ العام ٢٠١١ ، وموافقتي جاءت بقناعتي التامة لمناقشة دور المثقف العربي ودوره ، هكذا تمددت الورقة فتحولت إلى كتاب ، فإلى أستاذي جل تقديري واحترامي ، وإلى دوره في تشجيعي ومتابعتي الحثيثة في المجالين الثقافي والأدبي.

عاش المثقف العربي كبقية أفراد المجتمع في ظروف قاسية ومتشعبة ومتشظية بعد الأحداث التي وقعت لبعض الدول العربية في العام ٢٠١١ ، وأدت إلى تفتيت المجتمع أفرادًا وجماعات ، وتباينات في الفكر والتطلع والتوجهات العقائدية والفكرية ، ولكن سيظل الوضع كما هو إذا هربنا من المشكلة وتقوقعنا في دائرة الاكتفاء بالذاتية والمصلحة الشخصية ، وهذا يعني المزيد من انهيار البنى التحتية ، وتكاثر الأوبئة التي كانت ولاتزال تعصف بعالمنا منذ ذلك التاريخ ، حيث دمرت الأحداث المجتمعات العربية ، وأفسدت

النفوس ، وتشعبت الأهواء ، وظهرت المصالح الشخصية والفئوية ، لذلك علينا جميعًا ومن يدعي الثقافة الوقوف مليًا تجاه ما يحدث ، والإقدام على تقييم حالة المجتمع العربي وما وصل إليه ، من هنا رأيت أنه بات على كل كاتب ومثقف القيام بمراجعة دقيقة لتلك الأحداث ، وما وصلت إليه مجتمعاتنا ، وما ينبغي على الموقف القيام به في السياق الفردي أو المجتمعي أو المؤسساتي.

وهذا الكتاب يتناول محاولات لفهم الواقع المعيش في العالم العربي وفق مجموعة من المباحث التي تدور حول النهضة العربية وعصر التنوير الذي حدث في وطننا الكبير ، والدلالات الثقافية التي تكشف عن أهمية الوعي المجتمعي ، الأمر الذي تطلب معرفة البنى التحتية الثقافية ، وحضور المثقف وتساؤلاته المتنوعة والمختلفة وفقًا لما يحمله من معتقدات وتوجهات وفكر وثقافة ، وهذا ما يعني موقفه من جل الأحداث التي وقعت على العالم العربي ، ومعرفة إن كنا بحاجة إلى هذه المراجعات بين الحين والآخر ، وإلى التنوع الثقافي ، أو نترك كل هذا ونبقى منعزلين عن بقية العالم؟

كل فرد في المجتمع له دور بشكل أو بآخر ، بحسب المجال والتخصص والمستوى العلمي ، أو الأكاديمي أو الفني أو المهاري ، ولكن لا يوجد تخصص باسم المثقف ، إذ هذا المرء الذي نوسمه بالمثقف امرأة أم رجلاً قد يكون واحدًا أو جامعًا لأكثر من مجال ، لذا فالمثقف يملك العديد من المفاتيح والأدوات العلمية والفكرية والتحليلية التي تمكنه من ربط ما هو ماض بالحاضر والمستقبل وفق

مجموعة من الرؤى والسياقات المختلفة ، ولكن لا ينبغي تجاهل أبعاد الثقافة ، إذ أن "أبعاد النظرية الثقافية تعمد على الإجابة عن سؤالين. الأول: من أكون؟ والثاني: ماالذين ينبغي عليّ القيام به"[1].

وحين عنونا الكتاب بدور المثقف بسؤال حول فهمه للعالم أو لتغيير العالم ، وهذا لا يعني أبدًا حضور دوره القديم الذي اعتبره المجتمع وصيًا على الناس ومقدراتهم الحياتية الحاضرة والمستقبلية ، وهو الرجل الحكيم الذي ترجع إليه كل الأمور ليقدم النصائح والعلاجات الثقافية بحكم ما لديه من علم ومعرفة وفلسفة تجاه الحياة والإنسان ، ولم نعن بالعنوان أنه حامل لواء الوصاية الشرعية أو المجتمعية على الناس ، وليس من باب تلك الادعاءات الزائفة ، وإنما المعنى لدلالة العنوان تلك الأدوار التي يقوم بها من خلال قراءته للواقع المعيش ، وعبر الولوج إلى الماضي ، من أجل المساهمة كفرد من أفراد المجتمع أو كشريحة من شرائح المجتمع ، وكما لها حقوق فعليها واجبات تجاه الوطن والناس والأرض للارتقاء ومواكبة الحداثة والتطوير.

تأثرت الشعوب العربية بالثورات والحركات الثورية والنضالية في العالم العربي في مطلع القرن العشرين ، فحينما كنا صغارًا وتلاميذ في المرحلة الابتدائية أواخر ستينيات القرن الماضي تعلمنا معنى العروبة ، ومعنى أن تكون عربيًا ، في الانتماء والهوية واللغة

١- أرثر أيزابرجر، النقد الثقافي – تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسة، ص١١٤.

والتفكير ، وحفظنا النشيد الذي يتغنى بالوطن العربي ، (بلاد العرب أوطاني من الشامي لبُغدان ، ومن نجد إلى يمن ، إلى مصر فتطوان) ، وإن كان مفهوم العروبة قد نشأ في حضن الدين الإسلامي ، أو بهاجس الدين ، لما للغة العروبة من تقديس ، باعتبار أنها لغة القرآن الكريم ، إلا أن العروبة لا تخص العرب المسلمين وحدهم ، وإنما كل عربي مهما كان دينه وتوجهه.

ولهذا فإن أقرب ما يمثل العروبة هو معرفة الماضي الذي عاشه الآباء والأجداد ، بوعي وقراءة فاحصة ، مع معرفة تاريخ الأمة العربية وما تعرضت له ، وما هي عليه الآن ، مع الوقوف على حاضرها ، وعلى كيفية يمكن الاستفادة من الماضي لعيش الحاضر وبناء المستقبل ، في ضوء التربية القادرة على بناء الشخصية العربية ، وعلى تحدي الصعاب ، المعنية برسم الاستراتيجيات والخطط ، فلا ينبغي التشدق بالعروبة ونحن بعيدون عنها ، وعن أهداف الإنسان العربي وطموحاته التي تجعله في مصاف الأمم والأقوام المتقدمة ، "فالبشر هم كائنات تاريخية ، والتاريخ هو الوسيط الأكبر بين وجودنا الشخصي ووجودنا الطبيعي"[1].

وهنا يتطلب منا جميعًا البحث عن أسرار وخبايا هذا الوسيط ، والإحاطة بما يحمله من تراث وتركات وترسبات من جهة ، وحضارة وثقافة من جهة أخرى ، بغية الوصول إلى كشف رموزه وأسراره ،

١- ناصيف نصّار، نحو مجتمع جديد – مقدمات أساسية في نقد المجتمع الطائفي، ص١٣.

وما آلت إليه الأمة العربية ، وكذلك ما تحتضنه من مقومات مختلفة ، وهذا يعني أن المجتمع العربي بحاجة ماسة إلى نقد ذاته ، وتحليل العديد من المواقف المرتبطة بالحياة والواقع والماضي والمستقبل. إلى نقد في الأنماط الاجتماعية والإرث التاريخي لكي نقف على ما يتمظهر من تركة ، وحضارة فُسرت نصوصها وأدبياتها بصور شتى أسهمت بعضها في تردي أوضاعنا الحالية.

المبحث الأول

النهضة العربية

إن العقل العربي من الملاحظ ، وبحسب التطورات الحادثة في العلوم الاجتماعية والمعلوماتية فينقسم هذا العقل إلى العقل الفردي المتمثل في ذات الفرد ، والعقل الجمعي المتمحور في الجماعة وما تفكر فيه تجاه المجتمع نفسه والعالم ، والعقل الآلي الذي بات حاضراً ولا يمكن التخلي عنه في سياق الثورة المعلوماتية ، بل لا يمكن للعقل العربي الخروج عن منظومة التفكير الذي رسمها لنفسه عبر التجارب والخبرات ، وعلى الرغم من ذلك فإن هذا العقل "يعيش أزمة وتهميش مما ضمر إنتاجه ، وتفشت الأوبئة من شبه علمية ، وزيف علمي ولا علمية إلى حد الخرافة"[1].

وفي الوقت نفسه لا يقدم العقل الجمعي مساهمات ثقافية وفكرية إلا من خلال مكتسباته التراثية والموروث الفكري الذي لا يقبل الانفصال عنه ، ولا غربلته ، لذلك يصطدم بما هو جديد الذي يلتفت إلى الواقع الاجتماعي المهمش لانتشاله وتحديثه وتطويره اجتماعيًا وسلوكيًا وثقافيًا ، وهذا يعني أن "حضور النهضة في المجتمع العربي والإسلامي حضور الوعي وتكثيف آلياته في حياة الإنسان ، والرغبة الحقيقة في تطوير الذات وتوسيع آفاقها المعرفية

١- نبيل علي، العقل العربي ومجتمع المعرفة، ص٦٠.

والاستفادة من معارف الآخرين وإنجازاتهم ، مع استحثاث الجهود الداخلية وعوامل المنو الذاتية في الجسد العربي"[1]. ولكن قد تتخلل كل هذا ما يوكده على حرب من الأوهام المستوطنة في الذهن وتعرقل الحراك المجتمعي والنشاط الثقافي والاجتماعي ، من هذه الأوهام: الوهم الثقافي المرتبط بالنخبة ، الوهم الأيديولوجي المرتبط بالحرية ، والوهم الأناسي المرتبط بالهوية ، والوهم الماروائي المرتبط بمفهوم المكانية وكذلك الوهم الحداثي المرتبط بالتنوير[2].

ويكمن لدى العديد من مثقفي عصر النهضة إن لم نقل جميعهم النظر إلى تجارب الدول والشعوب وكأنها تغطي قومية ما ، بمعنى أن الوقوف آنذاك على "التجارب كان من منطلق قومي ، نقول: التجربة البولندية ، التجربة الفرنسية ، وهذا يميل إلى الإخلاص للهويات القومية الأساسية"[3] ، ولكن هل هي الطريقة المثلى للتواصل مع الآخر؟ وهل هي الآلية التي يتم عبرها الاحتكاك بالثقافات الأخرى؟أو بالمجتمعات والثقافات غير التي في مجتمعك؟

وبالعودة إلى التاريخ العربي والإسلامي نجد تشكل الدول العربية الإسلامية تكونت من خلال القوة السياسية التي سيطرت على مقاليد الحكم والسلطة السياسية ، فظهرت الدولة الأموية ، الدولة

١- محمد محفوظ، الإسلام، الغرب وحوار المستقبل، ص١٥٢- ١٥٣.

٢- انظر: على حرب، أوهام النخبة أو نقد المثقف، ص٢٧.

٣- إدوارد سعيد، السلطة والسياسة والثقافة، ص١٣٨.

العباسية ، ومع ضعف الدولة الأخيرة لأسباب عدة ، برزت الويلات الصغيرة في بعض المناطق العربية ، مثل: الدولة الفاطمية ، الدولة الحمدانية ، الغزنوية ، الأيوبية ، الدولة الأموية في الأندلس ، وغيرها من هذه التكتلات. وعلى الرغم من هذا فإن الاتساع والامتداد كان من نصيب هذه الدول شرقًا وغربًا ، بل استطاعت أن تكون لها حضارة وثقافة داخل حدودها الجغرافية وخارجها ، بسبب ما كانت تملكه من قوة وتماسك ، ولكن المشروع الذي بنته هذه الدول والدويلات أصيب بالانهيار والتشتت.

وهنا نشير إلى أن كلما تشتتت الجهود العربية بين دوله لم تستطع السلطات السياسية ردم الفجوات والثغرات التي تحدث هنا وهناك ، وبين زمن وآخر ، فما نادى به رواد النهضة في القرنين التاسع عشر والعشرين راح في تخلخل واضمحلال ، أصبح دورها أكثر صعوبة في حضورها الدولي حضاريًا وثقافيًا ، على اعتبار أن أية دولة ضعيفة لا تتمكن من تصدير أو تسويق ثقافي لثقافتها عند الآخر ، والعكس يحدث للدولة القوية ، وهذا ما نتج عنه مفهوم العولمة التي نادت بها أمريكا ، واستطاعت أن تفرضها بالوسائل المختلفة والوسائط المتنوعة ، وبالفكر ، مما جعلنا اليوم العيش في ظل عصر الثورة المعلوماتية والعالم الافتراضي ، والتفاعل الترابطي ، والتواصل الإلكتروني ، أليس هذا جزءًا من البناء المجتمعي للعولمة الثقافية؟

ويبدو أن التراجع الواضح الذي حصل للثقافة القومية العربية ،

لعدم وجود رؤية واضحة من قبل الساسة ، والمثقفين والمفكرين تجاه الحراك الثقافي العربي داخل وخارج الوطن العربي ، "حيث التحديات التي تواجهها الثقافة العربية كثيرة ، وأهمها الإجابة عن سؤال الهوية ، والتحرر من عقدة النقص والاستلاب من جهة ، وعقدة العظمة والانغلاق من جهة أخرى ، إذ يبقى الإنسان العربي في أسر حالة من الانفصام الثقافي ، وانفصال الفكر عن الواقع المعيش"[1] ، بل ليس هناك رؤية لجمع شتات هذه الدول العربية تحت الفكر والثقافة ، في الوقت الذي كانت هناك جهود كبيرة تجاه القضية الفلسطينية وإن حدث لها بعض التراجع ، مما يعني أننا نحن العرب بحاجة ماسة إلى حالة حقيقية من التطور الاجتماعي والثقافي ، وإلى الأنماط والأبنية التي ترتبط بهذين التطورين ، وهو ما يتطلب "إعادة ترتيب كاملة للمسرح الثقافي الذي لا يمكن فهمه إلا من منطلق تاريخي"[2].

ومن المعضلات التي يحاول بعض أفراد المجتمع أن يضعها عقبات في مسيرة المجتمع وتحولاته ، وبناء جسور التواصل والمعرفة بالآخر ، وهي عدم الرغبة في السعي نحو التنوع الثقافي ، وكأن هذا يشكل تهديدًا في بنية المجتمع الاجتماعية أو الثقافية أو الدينية ، وحيث يعطي هذا التنوع بعدًا معرفيًا وحضاريًا وثقافيًا فإنه يسهم في

١- مجموعة من الباحثين، ارتدادات الربيع العربي – ربيع العرب ما له وما عليه، ص٥٥.

٢- إدوارد سعيد، السلطة والسياسة والثقافة، ص١٣٨.

تطوير المجتمع وتعديل سلوك أفراده ، ويفتح آفاقًا جديدة تجاه عجلة التقدم ، من دون أن يعلم هذا البعض أنه يغلق على نفسه فاعلية التواصل.

وفي الجانب الآخر نجده يجلس بالساعات يتنقل من موقع إلكتروني لموقع آخر ، من قناة تواصل اجتماعية لأخرى بغية الدخول في عالم من المهاترات والحكايات السطحية والبحث عن الملذات اللغوية والشهوات اللفظية ، وكما يقال الحديث في (القيل والقال) ، ومبتعدًا عن "الثقافة وإن كانت حالة خاصة تعكس أحوال مجتمع ما ، ولكنها في جانب آخر هي حالة ممتدة ، ومنفتحة على المجتمعات الأخرى ، بعُدت أو قرُبت فهي تأخذ وتعطي ، وتوثر وتتأثر ، وتتشكل من هذا الاتصال والتواصل ، فثقافات الأمم على مدى عصور التاريخ نتغذى من بعضها البعض"[1]. وهنا حينما يسمح هذا البعض لنفسه الإبحار عبر ميديا التواصل الاجتماعي كيف يضع العقبات تجاه عالم التواصل الثقافي والحضاري ، إلا إذا كان هذا البعض ضعيفًا ، ولا يملك قدرة المحاورة ، واثبات قيمة ما يحمله من فكر وتطلع يبني من خلالها لبنة في المجتمع.

كما أننا بحاجة إلى نقد في المنحى الفلسفي الذي يتطلب أيضًا قراءة المقولات الفلسفية وتحليلها ، وتفكيك بناها ، وفي الوقت نفسه نحتاج إلى قراءة نقدية للمشهد الثقافي والأدبي العربي ، وتلك

١- أحمد الفلاحي، حول الثقافة، ص٣٥.

النصوص الأدبية المختلفة التي يصب بعضها في تأجيج المأساة العربية ثقافيًا ، وبهذا فإن الأمر يدعو إلى الوقوف عند السياق الاجتماعي في فضائه الصحفي والإعلامي الذي يشكل خطرًا محدقًا إذا لم نقم بمراجعته ودراسته فنيًا وتقنيًا ، وعلميًا وبنيويًا وثقافيًا ، حيث الأثر في المجتمع يكون فادحًا لما للبعد النقدي من أهمية تجاه السياقات الدينية والأيديولوجية والعقائدية ؛ لأننا في هذه المرحلة التاريخية من الواقع العربي تفرض علينا أن نجدد في بنية عقولنا كمطلب ثقافي حتمي ، وأن يتصف هذا التجديد بالوعي والابتكار والاستشراف ، ويؤدي دورًا عبر المبادرات والمعرفة والتواصل ، لا أن يبقى العقل العربي حبيس التقليدية والسطحية والفردانية والسلبية[1].

واجهت أوروبا العديد من المشكلات والقضايا التي أثرت عليها سلبًا ، وكانت الأسئلة تطرح في كيفية الخروج من أزماتها ، حتى أن بندا Benda قد اعترض قائلاً "كيف يمكننا اقتراح تعريف لأوروبا معتمدًا على وحدتها الثقافية ، في حين أن أوروبا تمثل التفرد والخصوصية الشديدة للهوية القومية التي تأكدت وواجهت بعضها البعض على مر القرنيين التاسع عشر والعشرين؟"[2] ، وسعت إلى إبقاء ادين في الكنيسة وذهبت الدولة ومؤسساتها المختلفة نحو العمل الذي أوصل أوروبا إلى ما هي عليه الآن.

١- انظر: نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، ص١٦٥ – ١٦٦.

٢- جامعة كل المعارف، ما الثقافة؟، ص٣٢٠.

إن تلك الدول الأوروبية التي كانت حضارتها ليست وليدة الصدف والتحولات المفاجئة والتطورات غير المنتظمة ، وإنما هي حضارة ذات شأن كبير في مجالات الفكر والثقافة والحضارة والفنون والآداب ، ومن خلال مفكريها فلاسفتها وكتابها عبر العصور والأزمنة ، مثل: أنا كسمندر وسقراط وأفلاطون وأرسطو وهوميروس وأرخميدس وفيثاغورث وأبيقور وجاليليو وغيرهم الكثير ، ولم تكن منجزاتهم في صناديق الذاكرة مخزنة ، وإنما كانت في ساحات التعليم والعمل والواقع المعيش آنذاك ، حتى ظهرت الشرائح المثقفة من الطبقات الاجتماعية المختلفة بعد ما كان لرجال الدين السطوة الكبرى في حراك المجتمع البطيء وتراجعه الواضح إذ "ظهرت طبقة المثقفين وساقت الدين إلى داخل الكنيسة ، وأحكم عليه الرتاج"[1] ، بل لو عدنا إلى الوراء وفي تلك الحقب التاريخية القديمة ، وتأملنا مقولات ميكافيلي لعرفنا كيف كان يفكر مليًا تجاه صنع مجتمع مدني ، حيث "كان آنذاك يعي أن الكنيسة بمزاعمها القديمة ، لم تعد قادرة على أن توفر إطارًا ما للنشاط السياسي ، فبقي موضوع فن الحكم ميدانًا شاغرًا لم يعد من الممكن تنظيمه بمبدأ عام من مبادئ الشرعية ، أما القتل والخداع والعنف والأنانية فهي وحدها التي كانت تقدم محفزات للفعل"[2].

كما أن أوروبا لم تتطور وتصل إلى ما هي عليه الآن إلا بعد أن

١- علي شريعتي، مسئولية المثقف، ص٦٦.

٢- جون إهرنبرغ، المجتمع المدني – التاريخ النقدي للفكرة، ص١٢٤.

أيقنت أنها بحاجة إلى الفلسفة والثقافة والفكر حيث المنظرون والفلاسفة هم من يستطيعون بناء المجتمعات وفق رؤى وخطط لانتشالها ، فعمدوا إلى الفصل بين الدين والسياسة ، وهو ما أشار إليه عبدالرحمن الكوكبي الذي دعا إلى التجديد في علم السياسة والممارسة السياسية ، والتدقيق في العلاقة بين الدين والسياسة ، في الوقت نفسه أن الخطر المهيمن على الساحة العربية هو ما سمي بالتطرف الديني والاجتماعي والأخلاقي الذي برز بصورة واضحة في السنوات الأخيرة ، حتى أن محمد أركون أشار بشكل واضح إلى هذه العلاقة المخيفة حين يتحول الدين إلى قوة مسيطرة في العالم فإن هذه القوة تحرك المشهد السياسي الذي يؤثر على جميع المشاهد العربية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية وغيرها.

وكما هو معروف أن أوروبا فصلت الدين عن الدولة وظهر عصر الأنوار ، ووصلت أوروبا في طريقها إلى الازدهار والتطور ، ولكن هل هذا الفصل هو ابعاد الدين أم رجال الدين ، وبخاصة أن تفسيرات النصوص الدينية كانت ولاتزال هي معضلة في الحراك الاجتماعي ، حيث هناك من يفسر ويؤول ويطلق الأحكام والفتاوى بما يخدم المصلحة الخاصة أو المصلحة الفئوية ، لهذا نعتقد أن الابعاد ليس للدين بقدر ما هو إبعاد إلى رجال الدين حتى لا يتحكموا في مصير المجتمعات والناس وهم غير واعين لدوهم الحقيقي الذي جله محصور في الممارسات الدينية.

ولكن هذا الفصل أخذه العرب بما فيه من مظاهر الانفصال

حينما ظهرت بوادر التنوير في العالم العربي ومحاولة مجاراة الغرب في تحولاته وتطوره كانت المواجهة الأولى في المجتمع العربي ، هي: مواجهة الدين ورجال الدين ، وبهذا فالعرب أخذوا ما كان ظاهرًا في المواجهة الأوروبية بين التنوير ورجال المسيحية ، إلا أن هذا التقليد ليس منطقيًا فهو تقليد سطحي أو كما يقول على شريعتي: "ينبغي على المثقف أن يحذر التقليد والنظر إلى الأمور بسطحية ، وعليه أن يفهم أن الدور الذي يقوم به الدين السائد الآن بين الجماهير ، لا علاقة له بالدين الإسلامي أو الثقافة الإسلامية الأصيلة الذي يرسي قواعد مجتمعه ، وأن تجربة اللادينية التي استخدمت في مقاومة المسيحية في العصور الوسطى لا يمكن أن تطبق على الإسلام سواء في ماضيه أم في حاضره"[1] ، حيث التباين المؤكد في طبيعة المجتمعات وحيثياتها الاجتماعية ومجمل التناقضات التي تحدث بين الحين والآخر في ظل طبيعة هذا المجتمع أو ذاك.

وما أحوجنا اليوم إلى إعادة النظر والمراجعة الصادقة مع ذواتنا وعلاقتها بذوات الآخرين ، حيث بات العالم العربي اليوم معرضًا أكثر من ذي قبل للانتهاك والسبي والسرقة وتدمير الإنسان فكرًا ووجودًا ثقافيًا وحضاريًا ، من خلال عدة جهات (داخلية وخارجية) ، كانت ولاتزال ترى أن الحق معها ، وأنها هي التي

١- علي شريعتي، مسئولية المثقف، ص١٤٠.

ستصلح كل المجتمعات ، لما لها من فكر وتوجه ، وأحادية المنطلق ، إذ انبرت جماعات تملك بعض المفردات الجاذبة استطاعت أن تحولها إلى خطب رنانة تدغدغ المشاعر ، وتتغلغل في الوجدان بعاطفة جياشة ، وإن كان كل هذا في شكل فضاء مهلهل يثقب بأدنى ريح تمر عليه ، وهو ما يعكس معاناة العالم العربي منذ فترات طويلة خلت.

وما يحدث اليوم ليس سوى شكل من أشكال ما كان في السابق ، أي النكبات والويلات التي تحدث ، كلما خمد المجتمع وضعفت إرادته السياسية والمجتمعية ، فبعد خمول العالم العربي متوسدًا وسادة التراجع والانغلاق منذ قرون ، وتحديدًا بعد أن ضعفت الدولة العباسية وتفتت إلى دويلات في الأقطار والأمصار ، ودخول التتار ودمار بغداد ، ثم تكالب المصائب بالاحتلال العثماني لمعظم البلاد العربية ، وخروجه ليدخل الاستعمار الأوروبي الذي وصل إلى شعوب بحاجة إلى استيقاظ وصحوة اجتماعية وثقافية وعلمية ، ما لبثت أن تجلت تلك البذور التي أسهمت في الوعي العربي في تلك الفترة وفرضت ، على الآخر مطالبها والدفاع عن كرامتها وجغرافيتها وثقافتها.

وهنا نتساءل ، هل المطلوب منا ونحن في القرن الواحد والعشرين ، ونعيش عصر الثورة المعلوماتية الكونية ، أن نعيد نتاج من سبقونا ونبجله ، وننادي به؟ أم بات واجبًا علينا أن نضع هذا المنجز والتراث العربي على مشرحة التحليل والتفسير والبحث في

ضوء مناهج النقد والنظريات الحديثة ، ومحاورة كل الجوانب التي تلامس مرحلتنا الحالية ، بل القيام بغربلة ما يشوبه ، بل علينا أن نؤمن بالحداثة التي ، هي: "مرحلة تبلغها المجتمعات من خلال عملية التراكم التاريخي والجهود التي يبذلها أبناء المجتمع في سبيل الخروج من القصور الذي يقترفه الإنسان في حق نفسه ، وعجزه عن استخدام عقله وإمكاناته في سبيل البناء ، لذلك لابد من الحرية والاستخدام العلني للعقل في أمور المجتمع وقضاياه المختلفة ، والمتعلقة بمبادئ حقوق الإنسان والفلسفة العقلانية ، وفكرة التقدم الاجتماعي"[1].

وهنا لا نحصره في الماضي السحيق ، فمنذ "بدء اليقظة العربية الحديثة مع أوائل القرن التاسع عشر ، والفكر العربي بمختلف اتجاهاته وتياراته يعيش مشكلة النهضة أو على الأصح يبحث عن مشروع النهضة"[2] ، وإنما حتى ما نادى به مفكرو النهضة العربية الذين خدموا بفكرهم وعطائهم الشعب العربي والثقافة العربية والحضارة العربية ، أمثال: بطرس البستاني ، وشبلي شميل ، وناصيف اليازجي ، ومحمد عبده ، والأفغاني ، والكواكبي ، وسلامة موسى ، ثم طه حسين ، وأحمد أمين ، لطفي السيد ، وساطع الحصري ، وغيرهم من الكتاب والمفكرين ، وهنا وجد العرب أنفسهم " أمام نموذجين حضاريين ، الحضارة الأوروبية التي كان

١- محمد محفوظ، الإسلام، الغرب وحوار المستقبل، ص٣٣.

٢- محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، ص٢١.

تحديها لهم ثقافيًا وعسكريًا المهماز الذي أيقظهم وطرح مشكل النهضة عليهم ، الحضارة العربية الإسلامية التي شكلت ولاتزال تشكل السند الذي لابد منه في عملية تأكيد الذات لمواجهة ذات التحدي"[1].

إن هذا الجيل الذي كان يمثل التنوير في بداية القرن العشرين كان ينادي بالقيم العليا لكي تكون غذاءً لأفراد المجتمع ، حيث أسهم الجيل في التأكيد على الحريات العامة ، الفردية والمجتمعية التي تبني المجتمع ، وليس تلك التي تودي به إلى الهلاك والضياع والجهل والمرض ، بمعنى الحرية المسئولة ، كما أكد هذا الجيل أيضًا على العدالة الاجتماعية التي تفرض وعيًا تجاه الوطن الكبير قبل الصغير ، تلك العدالة المتمحورة في أبعادها الثقافية والمعرفية ، وأيمانًا بدور الفرد في تحديث مجتمعه وتطوره ، وهذا ما يدعو إلى التنوع الثقافي من جهة وقبول الآخر من جهة ثانية.

لم تنس النهضة العربية إذ وضعت في اعتبارها –وهي ترى الغرب ومسيرة التطور – الذي جعل المنادون بالتغيير والنهضة أن يقدموا مشروعهم النهضوي بصفته إصلاح الأمة والمجتمع في شتى مناحي الحياة السياسية والثقافية والاقتصادية والتعليمية ، وهذا يدعو إلى التواصل مع الآخر ، وبالأخص حينما كانت البعثات التعليمية ترسل إلى جامعات أوروبا ، وفي هذا السياق هناك باحثون " كانوا

١- محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، ص٢٢ – ٢٣.

الأكثر انشغالاً بالتنوير ، وتحت عناوين مختلفة ، بعضها يشير إلى التنوير بهذا الاسم حيث أقيمت الندوات والمحاضرات التي تكشف عن طبيعة الثقافة العربية ، ليس في مرحلة الاستنارة بالغرب ، وإنما أيضًا في الكيفية التي درست بها تلك الاستنارة ، ومراحلها التاريخية والشخصيات التي كانت مؤثرة فيها "[1] ، وفي مقابل هذا التوجه الإصلاحي هناك من أخذ خط الدفاع عن المكتسبات العربية الإسلامية ، ونادى بالمحافظة ، ورفض الذهاب إلى ما هو في الغرب ، مما يدعونا إلى قراءة واعية للواقع المعيش وإلى تلك الثقافة السائدة فيه ، وإلى طبيعة الأفراد ومدى تعاطيهم في الثقافة نفسها.

وهذا يعني إن أردنا الحداثة في المجتمع العربي أن نؤمن يقينًا بأن أي حداثة لا يمكن استيرادها من الخارج إلا وفق معطيات اجتماعية وثقافية وحضارية وبنية عقلانية ، بحيث لا ينبغي النظر إلى الحداثة بوصفها مجموعة من السلع والمواد التي تباع وتشترى ، ويمكن استيرادها من موطنها الأصلي أيا كان موقعه الجغرافي ، بل علينا النظر في أهمية توافر الشروط التي تؤسس خطط السير نحو الحداثة ، أي الشروط الثقافية والاجتماعية والعوامل التي تؤهل المجتمع أفرادًا ومؤسسات مختلفة التخصص والمهن والمجال ، ومراكز البحث العلمي والإنساني ، وكل ما هو مرتبط بحالة من حالات المجتمع وتسهم في بلورة فكرة أو آلية أو طريقة نحو التقدم في التفكير

١- سعد البازعي، قلق المعرفة – إشكاليات فكرية وثقافية، ١٤٢- ١٤٣.

والتخطيط والعمل ، ولكن لكي يكون مجتمعنا حداثيًا فهناك سمات ينبغي أن يتحلى بها المجتمع ، مثل: إعطاء الصدارة للعقلانية في الإيضاحات والتفسيرية للمعايير الدقيقة للتفكير العلمي التي تؤكد على ضرورة التواؤم بين الوسائل والغايات ، وأن تكون الكفاءة المكتسبة بالتعليم والتدريب والخبرة والتجربة معيارًا لتبوئ المناصب وليس المكانة الاجتماعية[1].

وهذا يعني دعوة إلى محاولة انتشال المجتمع من أنياب الضياع والخوف من انحرافه نحو التعصب في شتى أمور الحياة ، إذا أردنا فعلاً مجتمعًا مدنيًا قائمًا على النمو والتعايش ، والتطور المجتمعي في مجالي القيم الإنسانية والقيم العلمية ، وعبر التفكير العلمي نقد المراجعات التي كانت تخطط مسيرة العمل الاجتماعي الفرد والجماعي ، كما أنه لا ينبغي النظر إلى المجتمعات الإنسانية على أنها مجتمعات مدنية وفق الرغبة في البقاء والاستمرارية تبعًا لما في مجتمعات أخرى من دون دراسة كل ما يتعلق بظروف البيئة والمحيط وحالة المجتمع الفكرية والثقافية والاجتماعية ، لذلك أتصور لابد من الابتعاد عن الصراعات الشخصية المرتبطة بالفرد أو الجماعة في حالة التطلع نحو مجتمع مدني قادر على مواجهة الصعاب ، وراغب في التعايش بسلام بكل الهويات والطوائف والمعتقدات والأفكار ، حيث كل هذه الصراعات القائمة على

١- انظر: جامعة كل المعارف، ما الثقافة؟، ص٦١٥- ٦١٦.

المصلحة الفردية أو الفئوية تسهم سلبًا في تفتيت أواصر المجتمع وروابطه ، وتفكك الخيوط الاجتماعية التي تؤسس مجتمعًا متعايشًا.

ولذلك لابد من كشف الزيف والخلل ، ومجموعة الاحباطات التي تعتري هذه الفئة أو تلك من أبناء المجتمع ، ولكن في سياق السلام والتسامح ، والحرية والمساواة ، والتواصل الاجتماعي ، والانسجام الوجداني ، والتقدم العلمي ، وعلى رأس كل هذا التمسك بمبدأ العقلانية في التعاطي مع كل شئون المجتمع. وهو ما يؤكد ما نادى به تيار الانفتاح في الثقافة العربية الإسلامية قديمًا على الآخر كالفارابي ومتى بن يونس وابن رشد الذين تتمحور دعوتهم إلى "وصل الثقافية العربية الإسلامية بثقافة اليونان دون إعطاء كبير أهمية الاختلاف الثقافي أو حتى الاعتقاد بوجوده أصلاً"[1].

بمعنى آخر علينا أن نفكر مليًا حين نطلق مصطلح الأمة العربية ، أو ننادي بالقومية ، فهل يتم ذلك وفقًا للغة أو الدين؟ أم وفق الأرض وما تجود به ، والتمسك بما فيها من مقومات كثيرة تربط كل من هو على الأرض العربية — هنا استثناء الكيان الصهيوني — دون النظر إلى اللغة أو الدين أو القوميات أو الأعراق ، أو الطوائف ، والانطلاق من فكرة أن لا شعب أصيل على هذه الكرة الأرضية ، فكل الشعوب تتداخل فيما بينها ، حيث الأمر يتعلق " بمفهوم الثقافة القومية العربية لا نعني فرض نمط ثقافي معين على الأنماط

١- سعد البازعي، الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف، ص٢١.

الثقافيـة الأخـرى المتعـددة والمتعايشـة عـبر تاريخنـا المديـد. إن التعـدد الثقـافي في الـوطن العربـي واقعـه أساسـية لا يجوز القفـز عليهـا ، بـل بالعكس لابد من توظيفها بوعي في إغناء وإخصـاب الثقافـة العربيـة القومية وتطويرها وتوسيع مجالها الحيوي"[1]. بل وصـل العلـم إلى أن يقوم بتحليل الجينات الخاص بالإنسان لتعطيـه سـلالته ونسـبه وتلـك الأزمنة والأمكنة التي له جذور فيها عبر مئات السنين.

١- محمد عابد الجابري، إشكالية الفكر العربي المعاصر، ص٤٠.

المبحث الثاني

دلالات ثقافيــة

عندما سئل الأولون المعنيون بالأدب والشعر عن مفهوم الشعر ، جاءت الإجابات كاشفة الجدل الذي كان ولايزال حول مفهوم الشعر بين الفلاسفة والمتكلمين والدارسين ، وحتى الشعراء أنفسهم ، سواء في الشعر العربي أو العالمي ، وما كتاب الشعر لأرسطو إلا دليل على هذا الاهتمام. وقد تناول أفلاطون الشعر في الباب العاشر من كتابه(الجمهورية) ، بطريقة اعتبرت بعد ذاك وثيقة لما عرف حينها بالنقد الفلسفي[1] ، أو كما فهم ابن رشيق الشعر بقوله: "الشعر فن صناعة الكلام ، إنه مناورة ذهنية بالكلمات ، لكن يظل وسيلة وليست غاية"[2].

وهو ما طرحه ابن سلام الجمحي بالقول: "للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات ، منها ما تثقفه اليد ، ومنها ما يثقفه اللسان"[3] ، إذ يتضح الاهتمام هنا بالجانب الثقافي وصناعة المفردة وفنية القول ، إلا أن هناك من نظر إلى الشعر

١- انظر: محمود الربيعي، في نقد الشعر، ص١٩.

٢- أدونيس، مقدمة للشعر العربي، ص٧١- ٧٢.

٣- محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، ص١٨.

من خلال شكل البناء والمتخيل والعاطفة وهيكل النص منذ القديم حتى الحديث ، إذ عرفه قدامة بن جعفر قائلاً: "إنه قول موزون مقفى يدل على معنى"[1].

لقد باتت مفردة الثقافة منتشرة في العديد من الأدبيات العربية والكتابات البحثية ، والدراسات النقدية ، بل حتى المؤسسات التي تعنى بالكتّاب والفنون المختلفة دخلت لعالمهم هذه المفردة ، وإن كنا لا نريد الدخول في أصل هذه الكلمة ومصدرها المكاني ، إلا أن الباحث مالك بن نبي قد أشار إلى أن الكاتب المصري سلامة موسى أعطاها شرعية التوظيف في المشهد العربي ، وذلك حين بيّن أنه سمع ذلك من الأستاذ محمود شاكر[2]. ولكن هل بات مفهوم الثقافة في العالم العربي له قوة وتحديد كما هو في أوروبا مثلاً؟ أم لا تزال الثقافة في عالمنا بحاجة إلى إكسابها القوة في الدور الملقى على عاتق المفكرين والمنظرين وعلماء اجتماع المعرفة؟

إن كلمة ثقافة لم تصل إلينا بمصطلحها الحالي ، وبدلالة مفهومها إلا بعد ما تمت ترجمتها لأرض الواقع المعيش التي كانت تعني تلك الأمور المرتبطة بالفكر وبالإنسان الذي يقرأ ، أو كما قيل بأن الثقافة هي الزاد الذي يبقى بعد ما ينسى الإنسان كل ما تعلمه ،

١- يمكن الاطلاع على كتاب قدامة بن جعفر(نقد الشعر)، أو على موقع شبكة الألوكة للدكتور خالد الجريسي والدكتور سعد الحميد.

٢- انظر: زكي الميلاد، المسألة الثقافية من أجل بناء نظرية في الثقافة، ص٣٦.

أي تلك الثقافة التي تعني "ثقافة الروح أو ثقافة العقل للرجل الذي عرك القراءة"[1] ، أو كما أشار نصر حامد أبو زيد بأن الثقافة كأنها كائن في هذا الوجود الطبيعي ، ولكن عليها التحول من هذا الوجود الذي نطلق عليه طبيعيًا إلى الوعي بالوجود نفسه.

ولكن يبقى السؤال حول الثقافة نفسها إن كانت فردية وشخصية أم جماعية ، محلية أم كونية ، هل هي روح الفرد والذات أم روح الجماعة والمجتمع ، أهي ماديات الإنسان أو ما يعني به الفكر والمعنى؟ هكذا كانت وستبقى الأسئلة تثار بين الحين والآخر حول الثقافة ومفهومها كلما دعت الحاجة إلى ذلك ، وقد بيّن سعد البازعي ذلك بالقول: "فمن أقرب الأسئلة وأشدها صعوبة هي ماهية الثقافة ، وحين يتأمل الإنسان في تطور المفردة من حيث هي مفهوم ، فإنه يجد أمامه تاريخًا من الاستعمال الطويل المتبدل الذي يحيل سؤال الماهية إلى سؤال تاريخي متشابك الجذور والصلات "[2] ، وهنا لابد من النظر إلى الثقافة بوصفها الفكر واللغة والكتابة والوعي والبناء لما لها من مطلب التأملات في كل مفاصل الحياة البشرية المعنوية والمادية.

وقد ثمن الجهد الذي وضع آنذاك من قبل المشتغلين بالنقد والإبداع ليكون للشعر مكانته الواضحة في التاريخ والثقافة ، وعلى الرغم من هذا فإنه لا ينبغي الوقوف عند هذه المحطة ، وهو ما حاول

١- جامعة كل المعارف، ما الثقافة؟، ص٣٢١.

٢- سعد البازعي، قلق المعرفة – إشكاليات فكرية وثقافية، ص١٩.

اللاحقون فيما بعد بطرح رؤاهم نحو الفكر وفلسفة الشعر ، مما يعني أن كل ما في الحياة لا يمكن أن يكون على وتيرة واحدة ، أو منهج واحد ، أو في دائرة خاصة طوال الوقت ، إنما طبيعة الحياة وحركة المجتمع تلزم الأفراد عامة والنخب بشكل خاص قراءة الواقع ليس الإبداعي أو الأدبي ، بل قراءة كل ما له علاقة بالبناء الحضاري والثقافي من أجل صياغة رؤية فلسفية تحاول معالجة المشكلات الكبرى التي كانت ولاتزال تعيق تقدم المجتمع العربي الذي ينظر بعين الحسرة والألم إلى الشعوب الأخرى ، وكيف تمكنت من نقد ماضيها ، وطرائق عيش حاضرها ، ورسم الاستراتيجيات لأجيالها القادمة.

وبهذا بات الشعر في كل زمان ومكان الصورة التعبيرية التي تكشف للآخر عن ثقافة المكان والزمان والإنسان ، لما له من دور في بروز ثقافة المجتمع وأحواله ، وسلوك منتسبيه ، لذلك يظل الشعر وإن تعددت مفاهيمه تبعًا لتغير المجتمع وتحوله ، ورؤية الشعراء والنقاد والمنظرين تجاهه غير قابل للتحديد ولن يصبح ذا مفهوم متكامل ، بل يعطي دائمًا مفهومًا غير مكتمل وناقص ، وهذا ليس خطأً ، وإنما هي حالة صحية تجاه المفاهيم والتعاريف في العلوم الإنسانية التي ليس لها تعريف قطعي ، كما في قوانين العلوم البحتة ، من هنا يبقى حضور الشعري والثقافي والفكري والإبداعي والدلالي مهمًا في المجتمع. وهذه الإشارة إلى الشعر ، من أجل بيان المقارنة بينه وبين الثقافة ، فما كان ينطبق على الشعر ينطبق على

الثقافة ، التي حاول المختصون الإتيان بتعريفات لها.

تأخذ الثقافة بعدين اثنين أساسيين ، هما: البعد المعني بالثقافة المهتمة بالمنجز المادي وحضارة المكان بالتراث والثقافة المادية التي تراه العين متوسدة المكان كالقلاع والمتاحف والآثار والمدرجات والكتابات والقبور وغيرها ، وهي ثقافة مرئية خارج كيان الإنسان الداخلي ، أما البعد الثاني فهو المنجز المعنوي المتمثل في الأفكار والقيم والمبادئ والسلوك الحضاري ، وطبيعة العيش والسكن وتمثل الثقافة واللغة والدين ، وهي ثقافة تنمو داخل الإنسان تدريجيًا ، وفي الوقت ذاته فالثقافتان ينبغي أن تنسجمان ولا ينفصلان عن بعضهما البعض.

كما ترتبط الثقافة بالمجتمع عبر طريقين اثنين ، هما طريق الأفراد الذين يمتهنون العمل اليدوي والعضلي والجسمي ، وطريق الأفراد الذين يمتهنون العمل الإداري أو الفني أو الإبداعي أو التخصصي ، أما تعريفها فقد "استطاع المؤلفون في نهاية الخمسينيات من القرن العشرين أن يجمعوا أكثر من(١٥٠) تعريفًا مختلفًا للثقافة قيد الاستعمال في الكتب الأكاديمية"[1] ، ومن هنا "فالثقافة تستطيع أن تمنحنا اللحظات الممتعة ، إذ توحي إلينا أن ننشد أحيانًا مجتمعين ، وأن نرقص مجتمعين ، ونضحك مجتمعين ، والأداء الحسن لذلك كله ظاهرة مشجعة وجمالية ينبغي عدم الاستخفاف بها ، ولكن

١- مايك كرانغ، الجغرافيا الثقافية . أهمية الجغرافيا في تفسير الظواهر الإنسانية؛ ص٧.

دورها الأساسي أن تعلمنا العيش المشترك والعمل المشترك وخاصة الكفاح المشترك"[1].

وهذا يعني أن الثقافة لا شك تسهم في بناء الشخصية ونموها عبر التربية والتعليم والإعلام المتنوع المسئول، كما تسهم في نمو الوعي نحو التطلع الاقتصادي والسلوك الاجتماعي والتعايش السلمي، وتسهم أيضًا في تنمية الوعي السياسي، وتأكيدًا على ذلك فقد أشار خلدون النقيب إلى أن للثقافة وظائف حددها وليم دوركايم تتمثل في منح الأفراد الهوية المشتركة، وضمان استمرار الحياة الاجتماعية عبر النقل والإرسال الثقافي من جيل لآخر، حيث شفرة الترميز التي تعطي للأشياء معنى، متأثرة بحركة التاريخ[2].

كما اتجه وايلد فسكي إلى تصنيف الجماعات الثقافي السياسية في أربع مجموعات، هي: جماعة النخبة: إذ يؤمن النخبويون بالتنظيم التدريجي، والإحساس بالمسئولية تجاه من هم دونهم، وجماعة النزعة الفردية: وهم الذين يؤمنون بالمنافسة الحرة، وعلى الحكومة الإبقاء على مساحة للحوكة وحماية الملكية الخاصة، وفي الوقت نفسه ليسوا منغلقين داخل ثقافات سياسية معينة، بل يمكن لهم الانتقال من مجموعة إلى أخرى وفقًا لما يتمتعون به من خبرات وتجارب، وجماعة أصحاب دعوة المساواة: وهؤلاء يؤكدون على أن لكل فرد في المجتمع حاجات عامة، والجماعة القدرية: هم

١- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص١٣٤.

٢- خلدون النقيب، مجلة العروبة، نادي العروبة، ص٣٨.

غير سياسيين ، ويؤمنون بالحظ[1] ، وهذا يوضح أن الثقافة تصاب ببعض التوترات بين ما يرتبط بالجماعة وما يرتبط بالفرد حيث الثقافة الفردية ليست الثقافة بمعناها الأنثروبولوجي ، والثقافة المشتركة ليست هي التعبير عن المحلية والإقليمية وتاريخ المكان ، ولكي لا يحدث التوتر داخليًا أو خارجيًا في بعده الثقافي فلابد من احترام الفوارق الثقافية[2].

لا أحد يختلف أن الثقافة العربية تمر بأزمات كثيرة ، أزمات في العقل العربي ، والوضع الثقافي والاجتماعي ، والاتصال بين أفراد المكان الواحد ، والعلاقة مع الأخر ، وهذا يعني "ببساطة أن العقل العربي في بعض نتاجه أو مجمل ذلك النتاج ما يزال يجد صعوبة في نقد ذاته ، وتفهم موقفها من الآخر ، والصعوبة قد تكون أبستمولوجية ثقافية تحيل إلى التربية الفكرية"[3] ، فضلاً عن علاقة الثقافة مع الدولة السياسية التي تنظر إليها من زاويتين مختلفتين ، زاوية التشجيع والدعم المادي والمعنوي تجاه المشهد الثقافي ، ولكن الزاوية الأخرى تتمظهر بين الحين والآخر توجسًا من دور المثقف والثقافة في إبراز بعض القضايا المجتمعية التي لا تريد هذه الدولة أو تلك كشفها أو البوح بها.

١- انظر: أرثر أيزابرجر، النقد الثقافي -- تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسة، ص١١٥.

٢- انظر: جامعة كل المعارف، ما الثقافة؟، ص٤١٨- ٤٢٠.

٣- سعد البازعي، الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف، ص٤٣.

وقد بين فؤاد زكريا أن الأزمة الثقافية بحاجة إلى حوار ثقافي عميق ، وتواصل معرفي بين المعنيين بالشأن الثقافي في العالم العربي ، والنظر إلي آليات التفكير ودور العقل العربي في ذلك حيث "في وطننا العربي إحساس بأن الثقافة في أزمة ، ومع ذلك فإن كثيرًا من المتحاورين في هذا الموضوع لا يتفاهمون ، ولا يصلون إلى تحديد واضح لطبيعة الأزمة ومظاهرها ووسائل حلها ، لأسباب من أهمها: إنهم لم يتفقوا على معان محددة للكلمات التي يستخدمونها في بحث هذا الموضوع الحيوي"[1].

وحين نؤمن أن الثقافة تبني وطنًا وشعبًا وحضارة فهذا كله يصب في تنمية الإنسان وتطوره ثقافيًا ، ومن خلال هذا البناء يستطيع مضاهاة الدول الأخرى ، ولكن في الوقت نفسه علينا أن نتأمل الأنماط الثقافية في عالمنا العربي الذي يتمثل في المعارف والأعراف والمعتقدات والهويات وغيرها من التراكم الحضاري حيث النمط الشائع في الحضارة العربية هو النمط الثقافي الديني بشكل عام ، والإسلامي بشكل خاص ، وهذا ما نختلف فيه عن مجمل الأنماط الثقافية التي المتمثلة في بعض الحضارات والثقافات ، "فالنمط الثقافي لليونان نمط فلسفي ، والنمط الثقافي للرومان نمط فني وعسكري ، والنمط الثقافي للصين نمط صوفي ، والنمط الثقافي للهند نمط ديني"[2].

١- فؤاد زكريا، خطاب إلى العقل العربي، ص١٦.

٢- علي شريعتي، مسئولية المثقف، ص١٣٥.

وفيما يدور حولنا حول تلك الطرائق المتاحة ، والوسائط المتعددة الممكنة ، هل تتمكن في توفير الأرضية السليمة لهذا البناء الذي يتطلب الحصول على التعليم المعرفة والخبرة والتجربة ، ومحاكاة الأفكار المتجددة ، والطاقات المختلفة ، وهذا بحاجة ماسة إلى آليات تسهم في كيفية احتضان المواهب والتقدير للجهود ، وكما كان يؤكد على ذلك العالم أحمد زويل بأن الغرب ليسوا عباقرة ونحن- يقصد العرب- أغبياء ، فقط هم يدعمون الفاشل حتى ينجح ، ونحن- العرب- نحارب الناجح حتى يفشل.

ولكن مهما حدث فإن الثقافة بشكل عام تقوم على فهم جل أهداف الحضارة الإنسانية ، وتسعى مؤمنة إلى العمل على تهذيب طباع البشر ، والعمل على مدركات القيم الإنسانية العليا ، ومثلها الداعية إلى أهمية الفكر والوعي في المجتمع ، على اعتبار أن "الاختلاف الثقافي ظاهرة محسوسة وتشهد بها سمات عديدة في الثقافة نفسها ، أبرزها اللغة والمعتقدات والتاريخ والتقاليد والمنتجات المعرفية والذوقية من علوم وآداب وفنون ، وأنماط السلوك وطرق التغيير..."[1] ، لذلك يتلقى الأفراد المفاهيم الثقافية والثقافة بشكل عام من خلال عمليات التعليم والتعلم.

أي أن الثقافة قيم إنسانية بالدرجة الأولى ، وإذا كانت الثقافة مؤسسة رمزية اجتماعية لا تقتصر على الفرد ، وإنما تشمل الجماعة

١- سعد البازعي، الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف، ص١٣.

الصغيرة والكبيرة ، وتسعى دائمًا إلى فعل الحراك المجتمعي الذي يحدد إدراك الفرد تجاه العالم من حوله واتساعه ، "فالتفكير بواسطة ثقافة ما معناه التفكير من خلال منظومة مرجعية تتشكل إحداثياتها الأساسية من محددات هذه الثقافة ومكوناتها ، وفي مقدمتها الموروث الثقافي ، والمحيط الاجتماعي ، والنظرة إلى المستقبل ، بل إلى العالم ، وإلى الكون والإنسان"[1] ، وقد عرف العالم البريطاني الأنثروبولوجي إدوارد تايلور الثقافة بقوله: "هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون ، وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوًا في المجتمع"[2].

وهذا يعني أن الفرد لا يمكنه أن يكون إلا داخل النظام المعرفي للجماعة وثقافتها ؛ لأن هناك ارتباطًا بين الثقافة نفسها وبين المجتمع ، لذلك "فالثقافة تتصل بروح الشعب وعبقريته ، والأمة الثقافية تسبق الأمة السياسية وتدعو إليها. إن الثقافة جملة من المنجزات الفنية والفكرية والأخلاقية التي تكوّن تراث أمة يعتبر مكتسبًا بصورة نهائية وتؤسس لوحدتها"[3]. فلثقافة هي المدى ، وقواعد السلوك العامة ، ووعي الأفق الذي ينخرط في تقاليده وعي الأفراد ووعي الجماعات ووعي المجتمع ، "فالثقافات تنشأ وتنمو من عملية

١- محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي(١)، ص١٣.

٢- زكي الميلاد، المسألة الثقافية من أجل بناء نظرية في الثقافة، ص١٦٦.

٣- دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ص٢٤- ٢٥.

المثاقفة والتفاعل الواعي واللاواعي "[1] ، وهذا يدعو إلى التأمل في جل المشكلات الاجتماعية والثقافية التي تبدأ ببعض الألفاظ اللغوية ، إذ غالبًا ما تظهر الـ(أنا) في الحديث والحوارات وتختفي الـ(نحن) ، وهنا أليس من الأجدى مراجعة أنفسنا ونحن نتحدث؟ وكيف نوظف المفردات وما ترمي إليه؟

إن الارتحال إلى الماضي والولوج إلى التاريخ لا يعني الالتزام بتلك الذهنية التي بنت مجتمعها وفق مجموعة من المفاهيم والتصورات ، بل ينظر إلى هذه المفاهيم بعد الفحص والدرس النقدي باعتبارها مدخلاً يمكن أن يسهم في بلورة وعي جديد لعالم ومجتمع وحياة تختلف كثيرًا في تكوينها الاجتماعي والثقافي والمعرفي وفي أنماط سلوك أفرادها ، وفي مستوى العيش الاقتصادي والتطلع العلمي.

وحين نطلب من الثقافة بوصفها وعيًا وتكوينًا لحضارة أن نفكر بأزمنة المشهد الثقافي وبما يحمله من معطيات وتحديات ، وما يتصف به أو يتميز به إن كان علوًا أو هبوطًا ، والابتعاد أو التقليل من ربط حياتنا الثقافية والأدبية والحضارية بدول سياسية كما كان في الماضي ، حين نقول الأدب الأموي ، الأدب العباسي ، الأدب الأندلسي ، أدب المماليك وهكذا ، عدا ما جاء من أدب قبل الإسلام فسمي لدي الكثير بالعصر الجاهلي ، وإن كان لدي تحفظ

١- بهيجة إدلبي، الأدب التفاعلي وحوار الثقافات، ص١٢.

على التوصيف ، إلا أن هذا الأدب ارتبط بالتاريخ وعصره ولم يرتبط بدولة سياسية ، وهو ما حدث أيضًا للثقافة في أوروبا ، فجاءت التسميات: العصور الوسطى ، عصر النهضة ، عصر الأنوار.

وكما كان تعريف الشعر ناقصًا ولايزال ، فكل التعريفات والمفاهيم المرتبطة بالعلوم الإنسانية عامة ، وبالثقافة على وجه الخصوص ، تبقى ناقصة وبحاجة إلى المزيد من البحث والتجريب والممارسة ، في سياق تعدد مساراتها وحقولها ، إذ لايزال التقسيم والتفريق قائمًا بين ما يقصد بالثقافة المتخصصة ، والثقافة الشاملة ذات البعد الكوني ، طالما هناك تنوع في المجتمع ، وفي تركيبته السكانية والمناطقية والجغرافية ، وكذلك في السلوكيات والعادات.

وهناك أيضًا تبئير تجاه مفهوم الثقافة والتعاطي معها في المجتمعات من قبل الفرد أو الجماعة العامة أو المتخصصة ، حيث تحضر الثقافة في عدة سياقات ، منها: السياق الأنثروبولوجي المرتبط بالمعارف والمعتقدات والأخلاق ، وغيرها من القيم الاجتماعية ، أو السياق الأيديولوجي المعني بالفكر المترجم في هذا المجتمع أو ذاك ، والمتضمن مجموعة القوانين والتطلعات ، أو السياق الاجتماعي القريب من السياق الأنثروبولوجي ، أو السياق السوسيوثقافي المعني بكل التطلعات الثقافية في المجتمعات ، وترجمتها على أرض الواقع المعيش في إطار اجتماعي فردي وجماعي ، سلوكًا وفكرًا.

أن الثقافة ذات مفهوم كلي ومركب مرتبط بالمجتمع ، وتراثه ومكتسباته التي تبرز من خلال العلاقات الاجتماعية ، وتلك

الأعراف التي تمثله ، والتنشئة التربوية والنفسية ، وعبر التعليم ، لهذا فهي أي الثقافة تُكتسب بتلك الوسائط التي يستحضرها المجتمع وأفراده ومؤسساته المختلفة ، بمعنى آخر الثقافة ، هي: "معرفة العالم الضمنية التي تمكن البشر من إيجاد طرائق مناسبة للفعل في سياقات محددة"[1].

وهكذا تكون الثقافة حاضرة وفق مفهوم من يطرحها ، ويكشف عن دلالاتها ، ضمن التخصص أو الاتجاه أو المذهب أو العقيدة أو ما شابه ذلك ، مما يعني "أن التنظيم الاجتماعي تحدده الثقافة أكثر ما يحدده المحيط الفيزيائي"[2] ، على اعتبار أن الفكر الإنساني هو مادة ينبغي كشفها وإبرازها ، وتحريكها قبل أن نقدم على مزاولتها واستخدامها وتوظيفها ، إذ لا ينبغي النظر إلى الثقافة التي تأتي لنا من خارج حدودنا الجغرافية ، أو البعيدة عن تراثنا الحضاري والثقافي كأنها استعمار وسيطرة ، أو كما كان ولايزال يطلق عليها بالغزو الثقافي ، ولكن "يا ترى ما هذا الغزو الثقافي الذي يواجه ثقافتنا؟ وهل يمكن أن تكون الثقافة غزوًا؟ الثقافة دائمًا نعرفها فكرًا وحضارة ومدنية ، فكيف تكون غزوًا؟ والغزو ضد التمدن والتحضر ، بل هو الهمجية والتأخر ، وتدمير للحياة ، الثقافة حياة بذاتها تعمر الأرواح وتشيد البناء وترتقي بالنفوس وتهذب الطبائع"[3].

١- تيري إيجلتون، فكرة الثقافة، ص٨٠.

٢- دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ص٣٥.

٣- أحمد الفلاحي، حول الثقافة، ص٣٩.

أما في مدى قبول أو رفض هذه الثقافة أو تلك ، فهو راجع إلى طبيعة تلك الذهنية التي كونتها البنية الثقافة والفكرية لدى الإنسان ، إذ لا يمكن لنا أن نقلل من ثقافة أمة أو شعب أو مجتمع ، لنعلي من أخرى ونهبط غيرها ، طالما كانت الثقافة في خدمة المجتمع وتطوره ورقيه ، حيث "لا يمكن لأي أحد أن يحكم على ثقافة ما بأنها على خطأ أو أنها أفضل أو أسوأ من غيرها في المطلق ، أو بالنسبة إلى قيم وأخلاقيات عامة لا يمكن قياسها علميًا"[1]. لكن واقع الحال في عالمنا العربي والعالم الإسلامي يدلل على بروز ظاهرة التطرف ، ورفض الآخر ، بوصف هذه الظاهرة حالة ثقافية تؤدي إلى إبعاد المجتمع عن تحقيق أهدافه وطموحات شعبه.

إن أي مجتمع يتطلع إلى المعرفة والثقافة ، فإنه يبنى على قاعدة ثقافية وتطلعات معرفية ، حيث يسعى إلى جديد المنتج في شتى المعارف ، لذلك فمجتمعنا العربي هو بأمس الحاجة إلى دراسة واقعه في سياق العلوم الإنسانية والعلمية والتقنية ، ولكن عبر الوسائل التي كانت وما ينبغي أن تكون ، ومدى أهليتها إلى الواقع المعيش وفق ضرورات الحياة ، ثم الوقوف عند الأهداف والغايات التي بالطبع تختلف من جيل إلى جيل ، ومن مكان لآخر ، ومن مجتمع لمجتمع بناء على تلك الأسئلة التي تقترب من الهدف وتسعى لتحقيقه بالوصول إلى الغاية ، وهنا تتمظهر المفاهيم

١- كليفورد غيرتز، تأويل الثقافات، ص١٥.

والتصورات تجاه هذا الواقع ، والمفارقة في ترجمتها على ما كانت عليه في الماضي ، وما يتطلبه هذا الواقع المعيش[1].

وفي خضم هذا ظهر في العصر الحديث عدد من المفكرين والفلاسفة في العالم العربي ، لتصبح أسماؤهم علامة مهمة في تاريخ الأمة العربية والإسلامية ، أمثال: محمد أركون ، محمد عابد الجابري ، جورج طرابيشي ، نصر حامد أبو زيد ، محمد سعيد العشماوي ، إدوارد سعيد ، وغيرهم. وعلى الرغم من قبول ما يطرحونه من فكر وأسئلة ، فإن الفكر التكفيري كان لهم بالمرصاد ، إذ رفض ما ينادون به من فكر وتطلع ، بل حاصرهم من خلال الشك في تعاطيهم مع الفكر الإسلامي والفلسفي والفكري ، حتى نجح في تقليص دورهم عند شريحة معينة من المثقفين ، في المجتمع العربي.

وعلى الرغم أن هؤلاء وغيرهم كانوا ينادون بالحوار الحضاري الذي يحكمه المنطق والموضوعية ، وحركة المجتمع ، وتطور عجلة الإنتاج الفكري ، فإنهم يؤكدون على أن الحوار "حالة تبادلية بين الذات والآخر ، حالة تنهض على الكل للكل ، وقائمة على الثقة المتبادلة ، والمشاركة الفعالة والابتعاد عن مركزية الذات الواحدة لما لهذا الحوار من بعديه المتمثلين في الرؤية والفعل"[2].

وعلينا أن نعي أننا شعوب عربية ، أو لنقل شعب عربي بمناطق

١- عبدالكريم سروش، التراث والعلمانية، ص٢٤- ٦٢.

٢- بهيجة إدلبي، الأدب التفاعلي وحوار الثقافات، ص١٢.

مختلفة متلاصقة متقاربة ومتباعدة ، شعب لديه من الإمكانات العقلية والذهنية التي تساعده في البحث والاستدلال ، لكنه يحتاج إلى قرار واع من متخذي القرار في المجتمع العربي لتتحول هذه الإمكانات إلى رسم سياسات ، وتنفيذ وبناء يتحدى بها كل القوى الظلامية التي تحارب الثقافة والعلم والتطلع ومواكبة العالم المتقدم ، وهذا يؤكد أنه لا يمكن القول إن الثقافة ذات صفات وراثية ؛ فهي تشكل ظاهرة تاريخية في المجتمع ، وهذه الظاهرة قد تصل إلى عمر معين وتنتهي ، لتأتي ظاهرة ثقافية أخرى ، أو تولد من الأولى في سياق الثقافات المسيطرة والمهيمنة ، والثقافات المهمشة والمسيطر عليها.

وهكذا ينبغي الوقوف عند كل الثقافات والعمل على قراءتها قراءة تحليلية نقدية من أجل الوصول إلى ما يتطلبه الواقع المعيش ، فلا يمكننا جعل الثقافة التي كانت مسيطرة في عهد ما صالحة لتكون في عهد وعصر آخر ، "فليس التحديات التي تواجهها الثقافة العربية اليوم عددًا متواليًا من المشكلات كما قد يتوقع كثيرون ، وإنما التحديات قوى نسقية مهيمنة ينبغي اكتشافها من أجل معرفة حدود ما تشكله في أنساق الثقافة العربية من تشويه وتزييف وإعاقة أو من بعث واندفاع خلاق"[1].

إن التاريخ لن يتوقف ، ولن تكل حركته ، فهو يسير في كل

١- إبراهيم غلوم، الثقافة وإنتاج الديمقراطية، ص١٧.

الاتجاهات والطرق ، وعلى كل المساقات والسياقات ، وعبر كل العتبات والحركات حتى لو حاولت أي جهة كانت إيقاف هذه الحركة التنويرية ، فلن تستطيع. أما ما يحدث اليوم في مجتمعنا العربي ، وحدث بالأمس البعيد والقريب ، وسيحدث غدًا ، فهو الذي يشكل الوعي وطبيعته من جهة ، ويشكل التاريخ من جهة ثانية ، عبر العلاقة الجدلية بين الإنسان والمجتمع والوعي الذي يبني فكرنا ويحدد مساراتنا الثقافية والاجتماعية والحياتية عامة ، في ضوء الصراعات المتعددة والمتكررة بين الطبقات الاجتماعية ، إن كان منظورًا ماركسيًا ، أو بين فئات المجتمع التكنوقراطي إن كان منظورًا اقتصاديًا ، أو بين تلك الظاهرة التقنية الحديثة وثورة المعلومات التي تفرض على المجتمع التغيير في التوجه ، وفي الممارسة وفي النظرة إلى الواقع المعيش.

وحين الحديث عن الثقافة فإننا لا نريد أن ندخل في توصيف بعض المصطلحات ذات العلاقة بالثقافة المتخصصة أو ذات المنحى المكاني أو الشعبوي أو الزماني ، فلا خلاف في أن هناك مجموعات كثيرة من الثقافات ، كالثقافة الشعبية ، وثقافة الأقليات ، وثقافة المركز ، وثقافة الهامش ، والثقافة المرجعية ، وثقافة النخب ، والثقافة العالمة ، والثقافة المهيمنة ، والثقافة التخصصية والمهنية ، والثقافة الجماهيرية ، التي أعتقد أنها أخطر تلك الثقافات ، لما فيها من ممارسات دون معايير أو قوانين اجتماعية ، وأن أصحابها هم الذين وضعوا في مخيالهم كيفية استقطاب الجماهير وتعويدهم على هكذا

نوع من الخطابات والثقافة.

ويتصف غالبتهم بالانفعالات الوقتية والانبهار اللحظوي بما هو قادم ، وكأن المستقبل الزاهر في حصن من الورد والياسمين ، وهو ما يلاحظه المتابع للشئون العربية بعد كل ما جرى من تداخلات في المفاهيم والمطالب ، بدءًا من العام٢٠١١ ، حيث "الثقافة هي روح الإنسانية وقد فردنت ذاتها في أعمال مخصوصة ، وخطاب الثقافة هو خطاب يربط الفردي بالكوني ، أي يربط صميم الذات بحقيقة الإنسانية دون توسط لما هو خصوصي أو تاريخي"[1].

وفي الوقت ذاته تملك هذه الجماعات ذات الثقافة الجماهيرية القدرة على خوض غمار المواجهة وتحدى المجتمع المتفق والمختلف ، الرافض والراضي لممارسات شريحة هذه الثقافة ، وهو ما يؤدي إلى مزيد من الاتساع والانتشار المصاحب لأهداف ضائعة وطموحات خاوية ، وآمال غير واضحة ، ومستقبل غير معروف ، إذ تكمن المساعدة في هذا الانتشار والحضور ، وتوسع دائرتها في دائرة التواصل الاجتماعي التي أوجدت أنماطًا متعددة لهذه الثقافة ، كما هو الحال في شبكة التواصل الاجتماعي وتطور الميديا ، التي فرزت ثقافة جماهيرية ، لها ثقافتها ولغتها وحواراتها وتطلعاتها.

ولقد أعطى انتشار هذه الثقافة الجماهيرية مساحة كبيرة للمؤمنين بها ، لكي يبثوا الكثير من معتقداتهم وأفكارهم التي

١- تيري إيجلتون، فكرة الثقافة، ص١٢٠.

تأخذ المرء والمجتمع من عين الفكر والسؤال والعلم إلى القيد والتمحور ، من دون رفض ما يأتي من هذه الثقافة ، وكأنه أمر مسلم به ، إذ هناك من يؤمن بالمعتقدات التي تصل بالمرء إلى الغيبيات والماروائيات في حل المشكلات العالقة بحياة الإنسان ، ويعتبرها ثقافة ، وهي التي أتى بها تاريخ الأولين من دون التدقيق والمراجعة والفحص والدرس ، وهو ما لا يؤمن به الفرد صاحب الثقافة النخبوية ، المؤمن بالعلم والتجربة والدليل العلمي الذي يرى في كثير من هذه الثقافة خرافات وخزعبلات.

وإذ نحن نؤمن بمبدأ الاختلاف والتبيان في الآراء وتسيير الأمور ، فهذا أمر طبيعي في أي مجتمع وفقًا لدور أفراد المجتمع ، ولدرجة الوعي والمستويات الثقافية ، والأنماط السلوكية ، وزوايا الرؤية لمعالجة الأمور الحياتية المختلفة ، ولكن وللأسف نبقى نحن في عالمنا العربي نعاني الكثير من الويلات ، ونحمل على ظهورنا العديد من القضايا التي نكونها ونراكمها بأنفسنا بناء على وعينا تجاه أنفسنا والآخرين ، إذ لا نقبل إلا بما نؤمن به نحن من دون غيرنا ، ولن نمارس قيم التسامح والاحترام والتقدير لأفراد اختلفوا معنا في الدين أو المذهب أو المعتقد على الرغم أن المواثيق الدولية ، والحكومات والقيادات السياسية في عالمنا العربي تنادي بهذه المبادئ ، إلا أن المعضلة تكمن في فهم أفراد المجتمع لأدوارهم تجاه التواصل والتلاقي مع الآخرين ، هو ما طرأ على مجتمعنا العربي من حالات العصبية والتطرف ، وتصعيد الاختلاف العقائدي والثقافي والفكري.

وهنا يحضر المعتقد ومدى الإيمان به. لهذا كما يقال ، هناك ثقافة وثقافة مضادة ، وهو ما ينطبق على مجالات أخرى ، ليس في الحياة العامة فحسب ، وإنما في مجال الفنون والآداب ، والتطلعات ، والحداثة والموضة ، والتنوع الموسيقي وغيرها ، مما يأخذنا إلى السؤال حول الثقافة ، إن كانت محكومة بالغرائزية أم بالسلوكية ، حيث الجانب الغرائزي يحد من تطور الثقافة واستمراريتها في الوقت الذي تعطي الجانب السلوكي هذا الأمر ، وهو ما يعني أن الثقافة مرتبطة بالإنسان وليس بغيره ؛ لأن السلوك وتطوره أحد معايير نتائج الثقافة ، الذي يعزز تلقي المعرفة ، بما يحمله من محتويات ومفاهيم ومصطلحات تجعلها تتفاعل مع كل معطيات المجتمع ، ليس رغبة في ممارسة الثقافة ، بل في إنتاجها.

وقد جاء في إعلان المبادئ بشأن التسامح المعلن عن منظمة اليونسكو بتاريخ (١٦ نوفمبر١٩٩٥) ، يؤكد على القيم الإنسانية "إن التسامح يعني الاحترام والقبول والتقدير للتنوع الثري لثقافات عالمنا ، ولأشكال التعبير ، وللصفات الإنسانية لدينا ، ويتعزز هذا التسامح بالمعرفة والانفتاح والاتصال ، وحرية الفكر والضمير والمعتقد ، إنه الوئام في سياق الاختلاف ، وهو ليس واجبنا أخلاقيًا فحسب ، وإنما هو واجب سياسي وقانوني"[1].

إن الثقافة الجماعية غالبًا ذات تأثير كبير على ثقافة الفرد ، ولكن

١- عبدالحسين شعبان وآخرون، ثقافة حقوق الإنسان، ص٢٣٩.

حينما تتكون هذه الثقافة الفردية ، وتبسط سطوتها على الثقافة الجماعية تتغير الأمور كثيرًا ، ليس على الثقافة فحسب ، وإنما تسحب هذه السطوة على الحضارة أيضًا ، وهو ما شاهده الملايين من البشر الذين ذرفت عيونهم دمًا وهم يرون الآثار والحضارة التي شيدها الإنسان قبل أكثر من ثمانية ألاف سنة في شمال العراق تتهشم ، وتصبح أطلالاً ودمنًا ، تلك الحضارة التي كانت جزءًا من الذاكرة الجماعية والثقافة الجمعية والتقدم العلمي والاجتماعي ، كما أن "تفحص مفهوم الثقافة العلمي يفترض دراسة تطوره التاريخي ، وهو تطور يرتبط مباشرة بالتكوين الاجتماعي للفكرة الحديثة عن الثقافة"[1] التي هي من صنع الحياة والمجتمع وعوالم الأفراد ، وهذا يشير إلى أن أي مجتمع في صورته الثقافية العامة لا يشكله المثقفون والمفكرون فحسب ، بل تسهم في هذا التشكل الثقافي كل قوى المجتمع الفاعلة والمختلفة في مجالاتها وعطائها وتطلعاتها.

ولذلك على من يدعي الوعي والثقافة ، ويرى أنه صاحب مشروع ثقافي اجتماعي ، يسهم في خدمة المجتمع وتطوره ، عليه أن يراجع ما يؤمن به من فكر ، وما لديه من رؤى تجاه كل قضايا المجتمع أو بعضها ، على ألا يعتقد أن ما يؤمن به يمكن أن يعالج ظواهر المجتمع ، وقضايا الإنسان وسلوكياته.

١- دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ص١١.

من هنا فنحن بحاجة مستمرة إلى المراجعة وممارسة النقد الذاتي ، ومعرفة دورنا في المحيط الذي نحن فيه ، فهذه المراجعة هي التي تساعدنا على معرفة قضايانا بصورة واضحة الأبعاد والزوايا ، فإن أردنا أنساقًا ثقافيًة متجددة لبناء مجتمع متطور ، لابد من تحليل الظواهر التاريخية والاجتماعية والثقافية ، والممارسات الفردية والجماعية في المجتمع ، وأهميتها في الرقي والتطور أو في الانحدار والتراجع.

وهنا تبرز الكثير من الأسئلة تجاه هذه الثقافة ، فهل تكمن الثقافة في التربية؟ هل الثقافة هي التهذيب والتشذيب ، هل الثقافة هي ما تضمه الحضارة من تاريخ؟ هل الثقافة المجتمع وما يحتويه؟ هل الثقافة كل هذا؟ بل لو رجعنا إلى معجم الصحاح في اللغة والعلوم ، لرأينا أنه أشار إلى الثقافة على أنها "كل ما فيه استنارة للذهن ، وتهذيب للذوق ، وتنمية لملكة النقد والحكم لدى الفرد أو في المجتمع"[1] ، كما يشير المنجد في اللغة والإعلام إلى مفهوم مجمل وعام مرتكزًا على أن الثقافة ، هي: "التمكن من العلوم والفنون والآداب"[2].

أما مجدي وهبة فيرى أن الثقافة تكون من زوايا عدة و مختلفة ومتنوعة ، أي هي: " رياضة الملكات البشرية ، بحيث تصبح أتم نشاطًا واستعدادًا للإنجاز ، وهي: ترقية العقل والأخلاق وتنمية

١- معجم الصحاح، مادة ث ق ف.

٢- المنجد، مادة ث ق ف.

الذوق السليم في الآداب والفنون الجميلة ، وهي: إحدى مراحل التقدم في حضارة ما ، بل وسمة لها"[1]. وكل ما ذكر لا يخرج عما قاله إدوارد برونيت تايلور حينما عرف الثقافة الذي جمع كل ما ذكر في تعريف واحد ، وما ذكر آنفًا هو تجزئة لتعريفه.

وهنا لا ينبغي الوقوف على الثقافة بوصفها أفكارًا فحسب ، بل هي تلك الأفكار وأساليب الحياة المعيشة ، والسلوك الاجتماعي ، وثقافة الفرد والجماعة والمجتمع ، وهي الوعي بما يدور حول الإنسان من قضايا وحيثيات ، فكل الديانات السماوية والوضعية هي عالم من الثقافة الإنسانية ، تقوم على عنصر مشترك ، هو تأسيس الأخلاق على مجموعة من التشريعات والمعتقدات ، غيبية ودنيوية ، وأي متصفح للكتب السماوية ، فإنه سيجد ثقافة التواصل والتسامح والتقارب والانفتاح ، كما يجدها في الكتب الوضعية.

تؤكد الديانة الصينية على التناغم بين الإنسان والكون من جهة ، وعلى الأخلاق والحكمة المتوارثة من جهة أخرى ، وهكذا نجد القيم والفضائل في فلسفة الطاو التي تنادي بالتوازن في عملية إدماج العلاقة الكونية بين الإنسان والكون نفسه ، مع البعد عما يشير إلى الحقد والأنانية أو الرغبات المقيتة ، وهذا ما أكدته لنا التعاليم الإسلامية السمحاء تجاه حب الإنسان والمجتمع.

١- مجدي وهبة، معجم مصطلحات الأدب، ص٩٨.

المبحث الثالث

علاقة البنى التحتية بالثقافة

مما لا شك فيه ، إن كل المجتمعات الإنسانية تمر بأزمات مختلفة وهزات متنوعة عبر المراحل التاريخية والحقب الزمنية ، مثلما تمر بتقلبات مناخية وتضاريسية على عدة مستويات ؛ كالمستوى الاجتماعي والمستوى الاقتصادي والمستوى السياسي والمستوى الثقافي ، لذلك فإن أي متابع لحالات المجتمعات الإنسانية ؛ قراءة أو مشاهدة ، لا بد أن يصل إلى قناعة بأن المجتمع لا يستقر ولا يسكن ، وإنما يكون في ديمومة من الحركة والتحولات والتغييرات إن أراد التغيير والتحديث والتطوير ، وكأنه بركان يفور ، حينما تختمر متطلبات هذا الفوران ويكون مستعداً.

ولهذا إذا كانت الحمم البركانية سبيل الانفجار ، وحدوث التغيير -ربما الجذري- في البقعة الجغرافية التي يقع فيها ، فإن الاقتصاد هو كذلك أساس حركة المجتمع الداعية إلى التحوّل من حالة إلى أخرى ، وهو محرك التاريخ ، والفاعل في تغيير المجتمعات. وكذلك الجانب الثقافي حيث التداعيات المجتمعية والسلوكية ، وحركة المجتمع تسهم في بلورة الحراك الثقافي وانعكاساته على الأفراد المعنيين به.

ولو رجعنا بذاكرتنا إلى تاريخ الدول ، لرأينا أن الماء والكلأ هما عصب الحياة للإنسان البدوي ، وإلى الرحّل ، حيث "النزعة المناطقية – تصنف الناس على أساس مناطقهم – تشكل عاملاً في النزاعات في كل مكان ، فهي تميل لأن تكون أكثر إثارة للمشاكل في المناطق ذات التنوع الجغرافي الواضح"[1] ، وهو ما كان يحصل في الصومال والسودان ونيجيريا وفيتنام وبورما وغيرها من المناطق ، مما يعني أن المعتقدات المختلفة التي يتشبث بها المرء قبولاً أو فرضًا طغت على الوطن ، وغطت مساحات كبيرة من تفكير الأفراد ؛ ليبتعدوا عن الحس الوطني ، ويكونوا محصورين في نطاق الأدلجة السياسية ذات المسحة المناطقية أو الدينية أو المذهبية أو العشائرية أو القبيلة أو العرقية أو الجنسوية.

وهكذا حاولت هذه الأدلجة التي تمددت على أرض الواقع في فترة من الزمن فرضت قوتها والسيطرة على مقدرات المجتمع ومكوناته الاجتماعية والثقافية ، كما في الاستعمار الأجنبي (الإنجليزي والفرنسي) آنذاك ، أو ما سمت عملها وسيطرتها بالحماية أو الوصاية التي فرضت على العالم العربي بالقوة ، ثم حضور الدول المتقدمة الأخرى كروسيا وأمريكا ، حيث كل هذا يكمن من ورائه القوة الاقتصادية من جهة ، والموقع الاستراتيجي من جهة أخرى ، تلك التي تعتبر الفاعل الحقيقي في الحياة

١- كليفورد غيرتز، تأويل الثقافات، ص٥١٣.

الاجتماعية والثقافية.

وقد أفرزت العلاقة بين الإنسان من جهة والاقتصاد والمجتمع تحولات وتغيرات في بنية المجتمعات الإنسانية ، فهناك مجتمعات كانت تعيش في عصور مظلمة متخلفة ، وبفضل الاقتصاد والتجارة والصناعية تحوّلت هذه المجتمعات مؤمنة بالتنوير ، كما هناك مجتمعات كانت رعوية في حياتها وتراثها وحركة عيشها ، وتحولت إلى مجتمعات صناعية ، ومن مجتمعات أمية إلى مجتمعات متعلمة ، ومن مجتمعات تقليدية إلى مجتمعات حداثية ، الأمر الذي كان ولايزال يتطلب من أفراد زي مجتمع أن يؤمنوا بأهمية التغيير الذي يصب في بناء مجتمع مستقر ذي مؤسسات مدنية تعمل ضمن منظومة التعايش والتواصل عبر العمل المشترك المخلص ، وأن تسوده المحبة بين الجميع ، فضلاً عن أن زي مجتمع من المجتمعات الإنسانية القائمة على المدنية فإنه "يتألف من عناصر مختلفة ، لها مهارات مختلفة ، وتؤدي مهمات مختلفة"[1] ، وهذا لا يعني الإقصاء ، وإنما التقرب والتعايش والتواد والعمل المشترك بين كل الفئات والمؤسسات والأفراد.

وقد آمنت هذه المجتمعات بضرورة العلم والمعرفة لتحقيق المزيد من التطور الإنساني ، بدلًا من الركون إلي الغيبيات ذات الأوهام والخرافات والخزعبلات التي باتت منتشرة في يومنا هذا ، وبخاصة

١- جون إهرنبرغ، المجتمع المدني-التاريخ النقدي للفكرة، ص٣٢.

بعد استقبال الفضاء للأقمار الاصطناعية ، وإنشاء القنوات الفضائية التي لم تعط المثقف العربي إلا دورًا بسيطًا ، ونسبة قليلة من كل الحزم البرامجية المتاحة على هذه القنوات ، تاركة الثقافة النيرة ، وذات المعاول التي تحفر في مجموعة البنى في المجتمع والحياة والتاريخ والحضارة والتراث لتذهب هذه القنوات ببرامجها لبث ما هو الأكثر خطرًا على المجتمعات من تلك القنوات التي تبث الأفلام الجنسية ، لما في الأولى من قدرة على الولوج داخل نفوس الناس والتأثير على تفكيرهم من جهة ، وعلى تغيير المفاهيم والقناعات من جهة ثانية ، مما يفرض على أفراد المجتمعات حرص المتابعة والتواصل مع هذه البرامج التي تعطل التفكير ، وتسلب القدرة على الاختيار ، وحصار المرء في دائرة المفاهيم المغلقة.

أي مجتمع أو دولة قائمة على الأنظمة السياسية ولديها المؤسسات المجتمعية فمن المؤكد أن هذه المؤسسات الثقافية الحكومية والأهلية الفردية والجماعية أو العائلية حاضرة في المشهد المجتمعي ، ومن يسعى إلى معرفة هذه البنية التحتية ذات العلاقة بالمثقف فسيجد الاتحادات الأدبية والروابط الثقافية ، والجمعيات الفنية التشكيلية أو الدرامية أو السينمائية ، والمهرجانات المختلفة من مسرحية وسينمائية وتشكيلية ودرامية وموسيقية ، إلى معارض الكتب والفنون والعلوم والتقنية ، إلى دور النشر والمكتبات العامة والخاصة ، وبيع الكتب ، إلي المتاحف والتراث والفلكلور ، والصالونات الثقافية والتجمعات ذات التخصص الأدبي أو الثقافي

أو الفكـري ، ودور الأوبـرا ، فضــلاً عــن دور الصــحافة الورقيــة والإلكترونيـة ، وكـذلك المواقـف الثقافيـة الرسميـة والخاصة بوصـفها مؤسسـات تسـهم تعزيـز البنـى التحتيـة الثقافيـة ، وفي سياق علاقـة المثقـف بهـذا كلـه ، بالإضـافة إلى القنـوات الفضـائية ذات الصـيت الكبير والانتشار الواسع الـذي قـرب بعـض الشـيء المشـهد الثقـافي العربـي للمشـاهد العربـي ، وإن كـان الفعـل السياسـي هـو المسيطر والطاغي بناء على ما يحدث في المجتمع الدولي مـن حـروب ودمار وتطرف وإرهاب.

وهنـاك ربمـا يـدور حـوار حـول المعنـى الـذي ترمـي إليـه البنيـة التحتية ، أو من يقوم بإعداد المجتمع ثقافيًا عبر هذه البني ، أليس المثقف هو من سيقوم بهذا الدور سواء رسميًا أم أهليًا ، وبعيدًا عن هذا وذاك ، فإن المثقف لكـي يقوم بـدور فاعل في المجتمع ثقافيًا فهو بحاجة إلى بني تحتية تسهم معه في العمـل والعطاء ، وهذا ما جعل التعليم مـن أهـم البـني الـتي ترمـي إلى البعـد الثقـافي والمعـرفي في المجتمع ، حيث التعليم عماد المعرفة في حياة الشعوب والمجتمعات ، فهو الحقل الأساس الذي يقدم الغذاء المعرفي إلى أفراد المجتمع على اخـتلاف مجـالاتهم وتنوعـاتهم وأعـراقهم وديانـاتهم وتفكيرهـم ، لقـد أسهم التعليم في العالم العربي منذ تأسيس الدولـة المدنيـة والإداريـة في بناء المشهد الثقافي في المجتمع.

أن هذه المؤسسات المعنية بالشأن الثقافي ، هـي منـابر ثقافيـة تعـد البرامج الثقافية المتنوعـة بحسـب المجال الثقـافي ، والرغبـات الـتي تهـم

وتعني هذه المؤسسة أو تلك ، كالحوارات الثقافية ، الأفلام الوثائقية أو السينمائية أو التاريخية أو الروائية ، المعارض الفنية المختلفة ، الندوات والمحاضرات ، ورش العمل والتدريب ، اللقاءات ، فضلاً عن حضور المعاهد والجامعات ، ومراكز البحث العلمي والدراسات التقنية والأدبية ، ومراكز التدريب.

ومع وجود هذه المؤسسات التي تعنى بالنشاط الثقافي ، فهل تم فتح مراكز ومعاهد تهتم بالأطفال ثم بالشباب؟ والعمل على تنمية قدراتهم ، وتطوير مهاراتهم ، ومحاولة جادة لمعرفة ميلهم الثقافي والإبداعي ، وكذلك أفكارهم وتطلعاتهم ، حيث هم الثروة الحقيقية لبناء المجتمع العربي مستقبلاً ، وبخاصة إذا استطاع المجتمع حمايتهم من كل موجات التطرف والعنف والإقصاء الجسدي والفكري والنفسي والديني ، فالعنف الذي يظهر هنا وهناك مستمد من عنفوان هذه الفئة ، وفتوتهم ، بعدما بدأت أحلامهم تتلاشى وتتراجع وتتقلص.

وهنا لا ينبغي الاستغراب كثيراً لقيامهم بأعمال تخالف القانون العام والخاص ، فهم عاجزون عن تحقيق أحلامهم الخاصة الفردية ، وأحلامهم الجماعية المجتمعية ، وأتصور ما يقومون به نتيجة ردة فعل لهذا العجز الذي خلخل بعض مرتكزاتهم ، لذلك لجأوا إلى ما يرمم هذا الخلخل ، وهو المعتقد الديني لإيمانهم أنه سيخلصهم من براثن فقدان الطموحات المجتمعية ، إلى الأحلام الأخروية.

وهكذا يحاول المثقف العربي الولوج إلى عوالم المجتمع المختلفة ،

بطاقاته وقدراته وإمكانياته ، فيؤصل ويفند ويفكك ويؤول ويحلل المعطيات والقضايا وطرائق الحلول ، من خلال مشروعه الثقافي ، لعله يتمكن من وضع تصورات تلامس جزءًا من تركيبة المجتمع ، أو تؤثر في خلخلة بعض الأفكار أو تسعى إلى إبراز حالة أفضل مما كان ، إلا أن عوامل أخرى تقف حائلًا بينه وبين تحقيق الحلم ، أي أن يكون مثقفو العالم العربي هم من يحركون المجتمع ، ويبنونه ويقدمون له ما يستطيعون من أجل الرقي ، ومجاراته العالم الآخر ، في الشرق أو في العرب.

وهنا لابد أن نقف وقفة تأمل لدور المثقف العربي ، ومدى إيمانه بالتنوع الثقافي من جهة ، ودوره في المجتمع ثقافيًا واجتماعيًا من جهة أخرى ، فكلما كانت حياة الإنسان والمجتمع في حالة استقرار أمني يتسم بالحرية والحقوق ، استطاعت ثقافة هذا المثقف ومشروعه أن يبسطا أجنحتهم على هذا المجتمع ، وتحقيق الأهداف والطموحات التي ينادي بها كل مخلص لوطنه ، محب لشعبه ، وتطلعات سياساته ، وربما كان لهذا المجتمع من الإمكانات التي تؤهله ليكون مجتمعًا ثقافيًا متقدمًا علمًا ووعيًا.

المبحث الرابع

المثقف وأسئلته

بين الفينة والفينة تبرز بعض المفردات أو العلاقات أو السلوكيات لتأخذ مرحلتها الزمنية والتاريخية في التوظيف والتعامل اليومي بها ، كما تظهر بعض المفاهيم والمصطلحات التي تتردد على ألسنة الناس بوعي أو بغير وعي ، ومنها ما يتعلق بالثقافة ، فنسمع ثقافة الحوار ، ثقافة الحديث ، ثقافة السير ، ثقافة الأكل والشرب ، ثقافة السلوك ، ثقافة الاحترام ، ثقافة الانتظار ، فكل شيء أدخلت عليه مفردة الثقافة ، وبات استعمالها كثيرًا في حياتنا اليومية ، من دون أن نشعر بنطقها ، أو قد لا نفكر كثيرًا في دلالاتها ، وموقعها في السياقات التي نضعها فيها. ولكن حينما ندقق في توظيفها نجد أنها داخلة فيها لتدل على ممارسة ما.

وبهذا فنحن نستعمل الثقافة مؤكدين أنها سلوك يقوم به الإنسان ، فإذا كان هذا السلوك سويًا نسب إلى علاقته بالثقافة والوعي ، وإذا كان السلوك غير سوي أبعدنا عنه صفة الثقافة ، ووسمناه بالتخلف والرجعية ، وغيرها من النعوت ، وهو ما قد يربك المرء في تعامله الواعي تجاه قضايانا وقضايا الآخر ، لذلك فإن توظيف فعل ما أو مفهوم ما أو سلوك ما هو: "الملء فراغ مفهومي

أو معرفي من دون الاهتمام بالدقة في الاستعمال"[1].

ولكن في الوقت نفسه فنحن نؤمن أن الثقافة زاد معرفي ، يطور الإنسان والمجتمع معًا شريطة أن يسمحا(الإنسان والمجتمع) للثقافة بإيجاد أرض صالحة لها ، لكي تنمو وتتطور ، فالثقافة كائن ينمو ويعيش حالة التحديث المستمر في بنى المجتمع المختلفة ، وفي أفراده ، وفي النظرة إلى المعتقدات الاجتماعية ، والأفكار والآراء ، وفي منظومة القيم ، وما يمارسه أفراد المجتمع في تعاطيهم الثقافي ، وفق الصياغات الذهنية التي تبناها هذا الفرد أو ذاك ، وهذا ما أكد عليه غلوم بأنه "لا يمكن أن نتصور مستقبل الثقافة في الخليج والبلاد العربية في معزل عن الاعتراف بالعقلانية النقدية والشراكة القائمة على الاعتراف بالتعددية والنهوض الثقافي الشامل في مجتمع مدني يتألف من جدب الأخذ والنفي يستثمر ما هو تراثي وحداثي ، وما هو أصولي وليبرالي ، ....."[2].

وهذا يأخذنا إلى الإيديولوجيا التي كانت عادة في السابق تلصق بالفكر اليساري أو الماركسي ، وكأنها سبة وشتيمة ، في الوقت الذي كان هناك من يمارس دوره المجتمعي والثقافي ، ومن خلال أفكار ونظريات قد لا ترتبط بالحداثة والتقدم ، فلا يطلق على هذا الفرد بأنه أيديولوجي ، وليست الغرابة في هذا ، بقدر أن المصطلح أو المفهوم بالمنهج اليساري ، وتوظيف دلالة المفهوم في هذا المسار ،

١- كليفورد غيرتز، تأويل الثقافات، ص٧.

٢- إبراهيم غلوم، الثقافة وإنتاج الديمقراطية، ص١٦١.

لذلك كان مرفوضًا عند الكثير من فئات المجتمع العربي ، وكأنهم يؤكدون ما أخبر به ويرنر ستارك بأن "الفكر الإيديولوجي هو شيء مشبوه ، شيء يجب التغلب عليه ونطرده من فكرنا"[1].

لكن في الوقت الراهن بات هذا المفهوم وأعني الأدلجة ، وما يحمله من دلالات يطلق على كل فرد يمارس دورًا في الحياة ، منطلقًا من فكر معين ، أو توجه معين ، أو نظرية معينة ، كالكاتب المبدع في شتى الفنون والقولية والبصرية والسمعية ، فحين يقدم المبدع عملاً فإن الفكر الذي يؤمن به ، ويمارسه بشكل مباشر أو غير مباشر يتبرعم بين لحظة وأخرى في هذه الكتابات التي تتشكل من ثقافته وفكره وتطلعاته الثقافية والاجتماعية والسياسية والحقوقية وغيرها ، سواء على المستوى الفردي أو الجماعي ، وهي بطبيعة الحال حالة طبيعية ، وبخاصة أن الفرد في المجتمع أيًا كان موقعه أو مجاله أو تخصصه أو عمله ، فإن العاطفة ربما تأخذه إلى ما يحب ، وتبعده عما يكره ، لذلك "فالناس لا يهتمون لاعتناق عقائد ترتبط بها معان أخلاقية كبرى يجري تفحصها بشكل يخلو من العاطفة"[2].

بعد النظرية النسبية بدأت القناعات التي كانت تتمسك بالمطلق في تخلخل ، لتعطي النسبية حق العلو والبقاء ، حيث بات كل شيء نسبيًا في المجتمع إلا إيماننا بالوجود الإلهي(الله) سبحانه وتعالى ، وإيمان العلماء بقانون الحركة بوصفها حركة في ذاتها ،

١- كليفورد غيرتز، تأويل الثقافات، ص٤٠٤.

٢- كليفورد غيرتز، تأويل الثقافات، ص٤٠٣.

وليس في سرعتها أو بطئها ، وهذا ما ينطبق على قيم المجتمعات وعاداتها ، وممارساتها الحياتية اليومية. وأمر طبيعي الإقرار بالتباين بين المجتمعات المتطورة والمجتمعات التي لاتزال تعاني من الثالوث (الفقر ، المرض ، الجهل) ، وكذلك المجتمعات المدنية والمجتمعات الريفية والصحراوية ، بمعنى آخر هناك تباين في التعاطي الثقافي بين إنسان الريف ، وإنسان البحر ، وإنسان الصحراء ، وإنسان المدينة ، وهكذا. ولكن بحكم حتمية التغيير ، فإن المجتمع الواحد لا يقف عند محطة تاريخية أو ثقافية أو اجتماعية ، بل يفرض عليه واقع الحياة أن يحدث التغيير والتحديث والتطوير ، وهذا يعني أن هناك استجابات إيجابية تحدث بين الحين والآخر لدى المجتمعات ، نحو التغيير والتطوير الحادث عبر التعليم والتعلم المباشر وغير المباشر.

وربما يتساءل المرء عن طبيعة المثقف ودوره في المجتمع وكيف برزت هذه الوظيفة والدلالة في الأساس ، وهنا علينا النظر إلى ما قاله كرامشي في كتابه دفاتر السجن: "كل الناس مثقفون ، وبناء عليه يمكن للمرء أن يقول: لكن لا يمارس كل الناس وظيفة المثقفين في المجتمع"[1] وهذا يتطلب من المثقف العمل وليس الركون ، وأن ينبى ويحدث ويطور ، حيث إن "أول من حاول تقديم تحليل منظم تناول طبيعة المثقف ووظيفته هم علماء الاجتماع الأمريكيون ، وقد حدد ليبش المثقفين بوصفهم من يبدع ويوزع ويمارس الثقافة ، أي

١- إدوارد سعيد، الآلهة التي تفشل دائماً، ص١٧.

العالم الرمزي الخاص بالإنسانية"[1].

ولكن أين يمكننا أن نرى حدود هذا المثقف في سياق منظومة من الأفكار والتوجهات والتطلعات التي يؤمن بها؟ وربما عند البعض من المثقفين في سياق الانتهازية والفردانية ، وفي في كل الأحول يظل المثقف غير حيادي بحكم العلاقة الثقافية بينه وبين الآخر ، وبحكم التوجهات الفكرية ورؤيته للعالم والمجتمع والإنسان والظرف الحياتي والمجتمعي ، وهنا يشير إدوارد سعيد بالقول: "ليس المثقف شخصية حيادية ، وليس حبرًا أعظم يقف فوق الكل ليلقي المواعظ"[2] ، وهو الشيء الملاحظ عند العديد من مثقفي العالم العربي ، حيث هناك من يدعي الثقافة وينصب نفسه مشرعًا وقائدًا على الرعية ، ومدعيًا بفكر يمارس من خلاله تحقيق انتهازيته التي تتخللها المواعظ والإرشاد والتوجيه ، وهذا ما ينطبق على الطالب والأستاذ ، بالطالب يكون تابعًا لأستاذه ، ثم يصبح الطالب أستاذًا ليتبعه طالب آخر ، وهكذا ، وهنا يعيد إدوارد سعيد قائلاً: "لا أحب أن أعد مُلك شخص آخر ، ولا أحب أن يكون شخص آخر مُلكًا لي"[3].

ومن هنا فلا شك فيه أن الشرائح المثقفة في المجتمع سواء أكانت بالمفاهيم القديمة أم الحديثة ، هي شرائح لديها من المهارات والقدرات التي تجعلها تتميز في توظيف ما تعلمته ودرسته وقرأته

١- جيرار ليكلرك، سوسيولوجيا المثقفين، ص١٧- ١٨.

٢- إدوارد سعيد، السلطة والسياسة والثقافة، ص٢٠٩.

٣- إدوارد سعيد، السلطة والسياسة والثقافة، ص٢١٠.

بطرائق متعددة لفتح المجال واسعًا للرؤى والأفكار بصياغات مختلفة تسهم في تنوير المجتمع ، وتغير بعض المفاهيم المعيقة لحالة التطور والبناء والتحديث ، وهذا ما حمله جمال عبدالناصر الطلبة والأكاديميين في الجامعات مسئولية العمل الثقافي ، "فعندما افتتح جمال عبدالناصر العيد الذهبي لجامعة القاهرة ، وجه خطابه إلي مستمعيه من الطلبة والأساتذة قائلاً: إنني جئت لأضع على كاهلكم مسئولية المستقبل"[1].

وكلما تميزت هذه الشرائح بتوظيف مهارات الإصغاء وقدرات التحدث ، ومعرفة الواقع المعيش محللة ما كان وما هو كائن وما ينبغي أن يكون في سياقات المعرفة والثقافة والبناء المجتمعي ضمن متطلبات العصر والحالة ثقافيًا واقتصاديًا وسياسيًا كل بحسب مجاله وتخصصه ، كلما تميزت هذه الشرائح في بناء التصورات وتقديم المقترحات ، وبخاصة أن المثقف عامة يسعى إلي تفسير الظواهر المجتمعية وتأويلها في أفق متطلبات المجتمع.

لا أحد يختلف حول دور المثقف في المجتمع إذ يعد دوره من أهم الأدوار التي ينبغي أن تكون ذات فاعلية في البناء الثقافي والاجتماعي وغيرهما ، فليس الحديث عن المثقف يعني الحديث عن الشخص الذي يتعامل مع الأدب فحسب ، بل هو ذاك الشخص الذي امتهن مهنة ما ، ويحاول ساعيًا أن يترجم ما امتهنه

١- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص٣٦.

وما تعلمه ودرسه وقرأه إلى واقع ملموس يخدم مجتمعه وأفرده في زمن الحاضر والمستقبل ، "والمثقف هو جزء من الفئات الاجتماعية الإشكالية التي لا تعتبرها طبقات ولا يمكن اعتبارها من المهن ، ووضعية المثقف لا تعتبر وظيفة"[1].

ولكن في الوقت نفسه يشير هذا إلى أن المثقف المتخصص أو العام يأتي من مهن وتخصصات ووعي متشعب كالموظفين والمعلمين والمحامين والأطباء والمهندسين وهكذا دواليك ، كما يظهر من كل هذا الكاتب والمبدع والناقد والفنان التشكيلي والمصور والمسرحي والسينمائي والتلفزيوني وغيرها من العلوم الإنسانية والعلمية البحتة والتقنية وكذلك والفنون. وعلى المثقف أن يفتح أفق النظر والتأمل لأفراد المجتمع بأهمية كل نص إبداعي يسهم في تطوير المجتمع ، وتنمية الذائقة التي تتعاطى مع القضايا المجتمعية المختلفة.

لا يمكن لأي مجتمع أن يصعد على سلم الرقي الحضاري والسلوك الثقافي إذا رفض الاختلاف ، ولا يقبل بالآخر دينًا وقومية وعرقًا وطائفة وفكرًا ، لذلك هناك أدوار جمة تقع على كاهل المثقف ، وكلما كان المجتمع بحاجة إلى التطور والتحديث ومواكبة حداثة المجتمعات الأخرى ، كلما راد دوره وتعمق واجتهد ، وأنكر ذاته ، لأنه لا يقف أثناء تأدية دوره على النقل والاكتفاء بما جاء به الأسلاف والماضي ، بل يدخل في عالم العقل والفكر ومحاورته.

١- جيرار ليكلرك، سوسيولوجيا المثقفين، ص١٢.

ولكن كان حتى وقت قصير لا ينظر إلى المثقف إلا بارتياب وبشيء من الحذر والتوجس ، بل الكثير الذين يحاولون الابتعاد عن محاورة المثقف لقناعتهم أن ما لديه من فكر لا يتناسب وميولاتهم ووعيهم ، وبخاصة أن بعضهم يعرف جيدًا أن محاورة المثقف تعني تغيير بعض الأفكار والآراء لما يمتلكه المثقف من قدرة على المحاورة (بالطبع ليس الكل)وطرح البراهين والأدلة ، لهذا يحدث التحاشي بناء على قصور في الرؤية للمثقف ودوره في المجتمع الذي يتمحور في المناداة "بأفكار وقيم يراها المثقف ضرورية لأحداث التطور في المجتمع والارتقاء به ، وهو الداعي إلى التغيير وتجاوز الموروث والمعيش إلى الجديد لإنعاش الحياة من جمودها ، وإحداث الحيوية فيها ؛ لأن الزمن تجاوز تلك الأنماط ، والانتقال إلى أنماط أكثر ملاءمة"[1].

في المجتمع العربي هناك ألاف المثقفين في مختلف الحقول المعرفية والتخصصية المتنوعة ، وبين هؤلاء هناك مثقفون ينتمون مهنيًا أو تواصليًا مع السلطات السياسية أو التشريعية أو القضائية ، وهناك مثقفون كانوا ولايزالون في هامش مركز الدائرة ، وبين هؤلاء وأولئك من هو منتم إلى مؤسسات ثقافية ، أو كان ولكنه فضل الابتعاد رغبة أو كرهًا ، وبعيدًا عن تقسيمات المثقفين وتوجهاتهم الفكرية والأيديولوجية وإبداعاتهم وكتاباتهم وعملهم ، فهل هؤلاء المثقفون في عالمنا العربي شاركوا فعليًا في صناعة القوانين الثقافية

١- أحمد الفلاحي، حول الثقافة، ص٤٩.

والأنظمة التي تسهم في بناء المجتمع ثقافيًا ، وتسعى إلى تطوره وتحديثه؟ أو أنهم كانوا فقط يمارسون دور المنفذ من قبل سلطات أخرى رسمية أو أهلية؟ أو أنهم فعلاً ليس لهم دور في ذلك كله؟

من هنا لا ينبغي لنا أن نرعب من نظرة المجتمع تجاه المثقف إذا كانت المؤسسات المعنية بالثقافة لم تضع للمثقف أي اعتبار ، فضلاً عن انكماشه وتقوقعه على ذاته مما باتت صورته مضطربة أمام نفسه وأمام الآخرين ، ولم تعد الثقة حاضرة عنده التي تؤكد على قيادة الحراك التنويري في المجتمع ، وفي سياق الأحداث التي عصفت بالعالم العربي وأبرزت التيارات المتطرفة أو الأحادية المختلفة ، لم يستطع "المثقف أن يشكل سلطة رمزية معترفًا بدورها وأهميتها"[1] ، ولكنه ينبغي عليه أقل تقدير أن يكون هذا المثقف ملتصقًا بالمسائل والقضايا ذات الشأن العام ، وفي سياق المصلحة العامة ، وحماية كل المكتسبات التي تشكل البنى المجتمعية لكل فئات المجتمع ، فضلاً عن المحافظة على التاريخ والثقافة والذاكرة الثقافية المتنوعة لتكون نبراس الماضي والحاضر والمستقبل.

ومن أولويات عمل المثقف ، ونشاطه في المجتمع بشكل عام ، والمبدع بشكل خاص ، الدفاع عن وجوده الثقافي داخل المجتمع الذي يعيش فيه ، وعن منظومته المعرفية التي تشكل شخصيته ووعيه وهويته الثقافية والفكرية ، تلك المنظومة التي قد تختلف في

١- على حرب، أوهام النخبة أو نقد المثقف، ص٤٢.

معطياتها ومحدداتها وأثرها وفقًا لاختلاف الشخصيات الثقافية ، وواقعها المعيش ، وهنا يمكن السؤال حول الفوارق بين المثقف ورجل الدين ، بمعنى هل رجال الدين هم شريحة مثقفة؟ هنا يبدأ التباين في وجهات النظر حول الدور الذي يقوم به المثقف ورجل الدين حيث الاثنان يسهمان في تقديم خدماتهم المعرفية المختلفة المنابع إلى المجتمع والأفراد ، وكلاها بطريقته وسلوكه وما تفرض عليه وظيفته الاجتماعية والثقافية والعقائدية تجاه المجتمع.

وهذا ما جعل بعض دارسي سوسيولوجيا الإنسان والمجتمع ، مثل: جيرار كيكلرك ، يتساءل عن مدى إمكانية المثقف أخذ دور رجل الدين في المجتمع ، وهذا كما أتصور بعيد المنال جدًا لما لرجل الدين المكانة الاجتماعية والدينية ذات الهالة الكبيرة مما تفرض نفسها بشكل غير مباشر لجعل الناس عامة حول رجل الدين ، وهذا ما لا يستطيع المثقف الوصول إليه ، وبخاصة إذا المثقف في نظر المجتمع كان ولايزال مرتبطًا بالحداثة والعلمانية ، وبالتعددية الدينية والمعتقد ، وبحرية الأفكار التي قد تتعارض مع توجهات رجل الدين ، حيث "علاقة المثقفين بالأيديولوجيات ليست كالعلاقة التي يقيمها رجال الدين مع الخطابات الدينية ، فرجال الدين يجعلون مكان إقامتهم داخل المؤسسة الدينية أو هم يلوذون بها ، وضمن محيط المقدس الفكري ، أما موقع المثقفين فهو العالم الخارج من القداسة"[1].

١- جيرار ليكلرك، سوسيولوجيا المثقفين، ص٣٦- ٣٧.

ولكن على هذه الشخصية أو تلك أن تتعلق بالمجتمع وتتأمل ركائزه المعرفية وكيفية التلاقي والتواصل معها ، وبخاصة أنه كلما كان دور الشخصية المثقفة يقوم على قيم إنسانية نابعة من وعي عميق في فهم القضايا المحيطة ، كما أشار الجابري بالقول: "انطلاقًا من فرض أساسي من فروض علم اجتماع المعرفة مفاده أن المثقف أو المفكر أو السياسي لا يعبر عادة عن قيمه الخاصة بقدر مت يعبر بطريقة شعورية أو لا شعورية عن قيم جماعة اجتماعية أكبر ينتمي إليها ، وفي كثير من الحالات عن طبقة اجتماعية يدافع عنها"[1] ، وهذا يعكس مجمل الحياة ، أي لا ينبغي ربط الحياة الاجتماعية في أي مجتمع قديم أو حديث ، تقليدي أو متطور بحقيقة هذه الطائفة أو تلك ، أو بهذا العرق أو ذاك ، أو بهذه الفئة دون غيرها من فئات المجتمع ، بل ربطها بالوطن وغاياته وتطلعاته المتعددة.

يحيك الإنسان بحكم التجربة والحياة مفاهيم الثقافة وممارساتها وتجلياتها وأثرها في الواقع المعيش ، لذلك فـ"الثقافة عبارة عن عالم يصنعه الإنسان ، وتمكنه من صنعه القدرة على الترميز ، على إلحاق معانٍ غير مباشرة تجريدية بالأشياء والأحداث"[2]. فالمثقف هو من يصنع تاريخه ، ويبني حاضره ومستقبله بنفسه ، ولا يقوى ماضي انتماءاته المختلفة القبلية أو العشائرية أو الطائفية أو العرقية على رسم خريطته الثقافية ووعيه المجتمعي ، على الرغم من أنه لا

١- محمد عابد الجابري، إشكالية الفكر العربي المعاصر، ص١٣.

٢- كليفورد غيرتز، تأويل الثقافات، ص١٣.

يستطيع التخلي عن هذا الماضي أو يتجرد منه كليًا ، فالماضي ، مهما كان نوعه ، أو حجمه ، أو طبيعته ، هو جزء من تاريخ الإنسان.

لكن العبرة في التمكن من غربلة هذا الماضي ، وتصفيته من الشوائب التي تعيق التقدم والانطلاق نحو المستقبل ، فـ"الأفكار الخاطئة والصحيحة تؤلف معًا نظامًا معرفيًا يحكم الفكر الإنساني"[1] ، وهذا ليس افتخارًا بالنفس أو علوًا بها ، بقدر ما يمكن القول إن الحقيقة المعيشة هي التي تشير إلى طبيعة هذا التكوين إذا أقررنا أن المثقف ليس شرطًا أن يكون حاصلاً على مؤهل علمي عال ، ولكن الشرط هو التكوين الثقافي المنصهر مع التعليم ، والاطلاع ، وقبول الآخر ، والحلم المستمر بالبناء ، والذهاب إلى المستقبل بحلم جديد ، وحياة أفضل.

إن دور المثقف في هذا التراكم والانفجار في الساحات العربية بات أصعب كثيرًا عما كان عليه في الماضي ، فهو مطالب ليس لما تريده الجماهير التي تعودت على آلية معينة في التفكير ، وستبقى مطالبها محصورة تبعًا لتلك الذهنية الثقافية ذات النسق المغلق ، وإنما على المثقف في هذه الآونة الحرجة أن يتجاوز ما توارثت على الأجيال لتكون مساهماته في إبراز قيم وأفكار تحرك الفكر والحوار من أجل البناء الأفضل والمجتمع الأسمى ، تلك الأفكار التي تدافع

١- سعد البازعي، الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف، ص٧٢.

عن ثقافة حقوق الإنسان بطرائق وآليات حضارية تعمق جوهرها وفكرها وفلسفتها ، لا أن تسيء لها.

وكل فرد من دون النظر لتوجهاته الثقافية أو الفكرية أو العقائدية عليه أن يكون ساعيًا إلى نبذ العنف ، والدعوة إلى نشر السلام والمحبة بين أفراد المجتمع ، وليس هنا المناداة بالكلام أو الحوار الخفي ، بل لابد من ترجمته واقعًا ملموسًا ، وبخاصة إذا كنا جميعًا نريد لعالمنا العربي أن يكون مجتمعًا مدنيًا قائمًا على المؤسسات المدنية ، وهذا يعني أن "قيام المجتمع المدني يستلزم الانتقال من البربرية إلى الحضارة ، ذلك الانتقال الذي يجلب إلى التاريخ الإنساني الصناعة والزراعة والملاحة والعلم والأخلاق والثقافة"[1] ، ومن دون ذلك يبقى المجتمع يراوح بين الجهل والتخلف والدونية ، مع سيادة الخزعبلات والخرافات والأوهام.

إن المثقف الذي يدعو إلى بناء مجتمع إنساني بعيدًا عن الحقد والكراهية ، ويتكئ على مبدأ التسامح ، هو الذي يؤمن بحوار الحضارات ، وتلاقي الثقافات المنتشرة بين الشرق والغرب ؛ فعبر الحوار يمكننا جميعًا أن نفكك العلاقة الشائكة والمعقدة بين أواصر هذه الثقافات التي نشأت بحكم التراكمات التاريخية ، وظلت ردحًا من الزمن ولاتزال تنخر الذاكرة الجمعية ، بحكم الصراعات السياسية التي تعصف بمقدرات الأوطان والشعوب ، أو بحكم

١- جون إهرنبرغ، المجتمع المدني – التاريخ النقدي للفكرة، ص١٥٢.

التوجهات الدينية أو التباينات الطائفية ، وما جاء في سياقاتها كالهوية العرقية واللغوية والدينية والمكانية وغيرها.

وهذا يتطلب منا الفهم الدقيق للمجتمع ونحن نبحث عن بنيته ومكوناته ، ونقرأ ونحلل قواه المتعددة الفاعلة والمؤثرة في هذا المجتمع أو ذاك ، من خلال التنوع الطبقي ، والتعدد في شرائح المجتمع وفئاته ، وليس كما أشار محمد عبده حين قال في رؤيته لحالة المجتمع العربي الذي ينبغي أن يتحدث ويتطور بعد ما حاول العديد من المثقفين الجري في تحديث المجتمع وفقًا لما جرى في أوروبا: أولئك نبذوا الدين فنالوا الحرية والسيادة والسيطرة على العالم ، ونحن نبذناه فمنينا بالذلة والانقسام والتفرقة والانحطاط والاستعداد لقبول كل ما يملى علينا ونجبر عليه ويلقى أمامنا"[1] ، بمعنى أننا نحن في العالم العربي حينما نسعى إلى التغيير والمطالبة بتحديث المجتمع العربي لا نأخذ ما حدث في الدول الأخرى ونطبقه في عالمنا وعلى أرضنا ونحن نختلف في الكثير عن تلك الدول في البنية الاجتماعية والسياقات التاريخية والأنماط الثقافية ، والحالات الآنية والتوجهات والطموحات المستقبلية.

وفي هذا الإطار يشير ديمتري أفييرينوس في ورقة حول نظريات الثقافة إلى وعي الإنسان ودوره في الحياة ، وكيفية التعامل مع مكونات المجتمع ، ومدى التأمل أو الاستعجال في النتائج ، فذكر أن

١- علي شريعتي، مسئولية المثقف، ص٧٤.

في "مملكة سونغ رجل عجوز عجول ، زرع حقله وأخذ يترقب نمو الأشتال فيه بفارغ الصبر ، غير أن الأشتال واصلت نموها الطبيعي ، وخيّبت أمل العجوز ، وذات يوم ، خطر بباله أن يسحب الأشتال إلى أعلى حتى يسرع في نموها ، أنهى العجوز سحب الأشتال كلها ، وعاد إلى منزله منهوكًا ، ثم قال لذويه: تعبت كثيرًا من سحب الأشتال طوال اليوم ، لكن تعبي لم يذهب سدى ، إذ أصبحت اليوم أطول منها بالأمس ، ولما سمع ابنه ذلك ذهب إلى الحقل مسرورًا ، فرأى الأشتال آخذة في الذبول"[1].

وحينما نقارب هذه الحكاية بطبيعة المثقف ، فإن هذه الحكاية وعبر فعل العجوز غير المدروس ، ودهشة الابن ، تتضح لنا بصورة جلية طبيعة المثقف الذي يعتقد أن أفكاره ومعتقداته هي الفيصل ، وهي التي تغير العالم ، وتبدل المجتمع ، وتحوله من حالة السكون والرتابة إلى حالة ديناميكية مستمرة ، تعمل على التطوير والتحديث ، من دون أن يعي أهمية الأفكار الأخرى والتواصل مع المعتقدات والأيديولوجيات والتوجهات التي تتلاقى وتتلاقح مع أفكاره من أجل البناء والتقدم ، ليكتشف أن ما يقوم به لا فائدة منه ؛ لما له من محدودية الفعل ، وبخاصة أن للمثقف أدوارًا عديدة ، إذا آمن هو نفسه بدوره في المجتمع ، فعليه أن ينتج الأفكار ، وأن يعي كيف يستهلك الأفكار ، ويعرف تمام المعرفة دوره في إعادة إنتاج

١- يمكن الرجوع إلى: ديمتري أفييرينوس، نظرات في الثقافة، في موقع معابر.

الأفكار وتسويقها. وهذا الصفات لا تحضر إلا لدى المثقف الواعي العارف لدوره وأدوار الآخرين في المجتمع القادر على قبول الآخر ، والتفاعل معه وفق عالم الثقافة والمعرفة والبناء.

وفي الجانب الآخر هناك أنواع من المثقفين في المجتمع ، منهم: المثقف الناقد ، المثقف الطليعي ، المثقف الملتزم ، المثقف المؤدلج ، المثقف المعارض ، المثقف الديني ، المثقف التقليدي ، المثقف الحداثوي ، المثقف الامتثالي ، المثقف القابع في برجه العاجي ، المثقف الجماهيري ، مثقف السلطة ، المثقف الإعلامي ، المثقف المأزوم ، المثقف المزيف ، المثقف الممزق ، وهو: الذي لا يعرف ماذا يختار أو يتجه ، المثقف المضطرب أو الضائع الذي لا يستطيع اتخاذ قرار ، المثقف الانتهازي.

أن المثقف العقلاني مهما كان توجهه فإنه ينادي إلى سيادة العقل وتغليبه ؛ لأنه يحرر الإنسان من تلك الموروثات التي تقيده وتعيق حركته نحو التحول والتطور ، لهذا يقوم بنقد الواقع المعيش وليس بوضع التبريرات التي تحيكها مجموعة هنا أو هناك سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو برلمانية أو قضائية أو صحفية ليقوم هو مباشرة بالتأكيد على شرعيتها. وهذا يعني أن "الفكر الثقافي العربي يعاني من أزمات طاحنة ، أزمات في فكر اللغة ، وفكر التربية ، وفكر الإعلام ، وفكر الإبداع ، والفكر الديني ، فكر القيم ، وفكر معالجة التراث ، والأدهى من ذلك الفقر الشديد الذي يعاني منه الفكر الفلسفي العربي ، والتنظير الثقافي ، وفي ظلمة الخواء ترتع خفافيش الانتهازية

الفكرية ويتحول أنصاف الفلاسفة وأنصاف العلماء إلى أشباه أنبياء ، وذوي سلطة معرفية أقرب ما تكون إلى السلطة الغيبية"[1].

ولكن أي مثقف لا يمكنه الولوج إلى قضايا المجتمع إلا إذا تميزت قدراته بمقدمات في التفكير العلمي ، والتفكير الناقد المتمثل في آلية الحوارات وأشكالها ، وفي معرفة طبيعة الحجج وأنماطها ، وأدلتها العقلية ، مما يؤدي بالمثقف إلى معرفة أساليب حل المشكلات ، حيث الأزمات التي يعاني منها المجتمع العربي ، وتتطلب اتخاذ القرار بعد القدر على صناعته في أي سياق لهذه الأزمات والمخاطر وكيفية التعامل معها ، وكأن الأمر يأخذنا إلى عقلية المثقف الذي يغلف المنافع والمصالح العامة على مشروعه الخاص أو الذاتي ، والعمل في سياق العقل الاجتماعي ، وليس الفردي ، حيث هذا العقل الاجتماعي كما يراه هوبز يحل محل رجل الدين ، والمرجعية الدينية التي تترأسها المؤسسة الدينية[2] ، لذلك عرفت الدكتورة زهيدة المثقف بأنه "هو الشخص القادر على الوقوف على مسافة من الواقع تمكنه من تحليله ، واتخاذ موقف نقدي حياله ، وصولاً إلى تكوين تصور عن مشكلاته ، واقتراح أفكار تتحول إلى ممارسات يتبناها المجتمع ، بهذه يكون المثقف عامل التغيير الأساسي في المجتمعات"[3].

١- نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، ص١٧٩.

٢- انظر: جون إهرنبرغ، المجتمع المدني – التاريخ النقدي للفكرة، ص١٥٣.

٣- مجموعة من الباحثين، ارتدادات الربيع العربي – ربيع العرب ما له وما عليه، ص٤٤.

ويظل السؤال مطروحًا حاليا وفي هذه المرحلة الحرجة من تاريخ العالم العربي ، كما كان مطروحًا حول الفكر والمادة ، وأسبقية أحدهما عن الآخر وبقائه ، والذي أنتج هذه الثقافة أو تلك ، أي أيهما الأسبق في تكوين الفكر البشري ، الإنسان المؤدلج أم الأيديولوجية نفسها؟ وأين يكمن الفرق بين المثقفين أصحاب الأيديولوجيات المختلفة؟ وما جسر التواصل بين المثقف عامة ورجل الدين؟ وبخاصة أن الإيمان بفكر ما قد يتحول وفق مجموعة من المعطيات ، وقد أشار فويرباخ بقوله: "عندما تنظر إلى تاريخ الأديان فسنواجه ظاهرة جذابة ، وهذه الظاهرة هي أن الكفر في عصر من العصور يعتبر إيمانًا في عصر آخر"[١].

وهنا يأتي التساؤل حول: أين تكمن العلاقة بين المثقف والفكر العلماني؟ وما العلاقة بين المثقف والتيارات السياسية المختلفة؟ وبينه وبين السلطات السياسية الحاكمة؟ وبينه وبين مختلف البنى الاجتماعية ، وبينه وبين مؤسسات المجتمع المدني الأخرى المسؤولة عن بناء المجتمع وتطوره. وغيرها من الأسئلة التي تجتاح بين الحين والآخر فكر أفراد المجتمع الذي يعاني من الاضطرابات ، وعدم الاستقرار ؛ لأن "التاريخ الثقافي العربي السائد هو في مجمله مجرد اجترار وتكرار وإعادة إنتاج بشكل رديء للتاريخ الثقافي نفسه الذي كتبه أجدادنا تحت ضغط صراعات العصور التي عاشوا فيها ، وفي

١- عبدالكريم سروش، التراث والعلمانية، ص٤٦.

حدود الإمكانات العلمية والمنهجية التي كانت متوافرة عندهم"[1].

كما هناك العديد من القضايا يمكن للمثقف أن يتعامل معها في سياق الأسئلة الكبرى التي تحاكي طبيعة العلاقة بينه بوصفه مثقفًا وبين ما يمكن تعميره في المجتمع إن كان تعميرًا للإنسان في أبعاده المادية والمعنوية ، أم تعميرًا للمكان المادي ، أو ما يمكن أن نسميه إعمار الحجر ، وحواره مع الحالات إن كان وفق البعد السياسي أم البعد الثقافي ، وهل ينظر إلى هذه القضية أو تلك في إطار الحلول الفردية أم الجماعية ، وتلك الاهتمامات للقيم الجوهرية والمثل العليا أو لتلك الحسابات الطائفية أو العقائدية أو السياسية أو القبلية ، بل الأهم أن يكون المثقف واعيًا وهو يحلل ويفسر قضايا المجتمع للمفارقة بين الفكر الداعي للحداثة والتنوير والفكر الداعي إلى الرجوع لثقافة الماضي والانغلاق فيها ، فضلاً عن المفارقات والتوازنات بين هذا الحداثوي والماضوي.

وفي الوقت الذي يكون فيه المثقفون عادة من يقدمون الرؤى لمشكلات المجتمع وحالاته ، ويفككون هذه الحالات ، ويعطون التصورات والتوقعات التي قد تنجم عنها ، سواء في بعدها المجتمعي أو الجمالي أو الإيديولوجي ؛ لأن المثقف هو من ينتج الخطابات الدنيوية لأفراد المجتمع تحت مسمى ما ، قد يكون مسمى دينيًا أو أيديولوجيًا أو سياسيًا أو ثقافيًا ، أو ينحدر إلى الطائفية والمذهبية

١- محمد عابد الجابري، إشكالية الفكر العربي المعاصر، ص٣٨.

والعرقية ، ويكون في هذه الحالة مغلفًا بخطاب الهوية.

من هنا تأتي أهمية ما ذكره(ريفيل) من أن هناك أنماطًا من المثقفين الذين يسعون إلى بناء خطاباتهم ، مثل: "أنماط الالتحاق ، والذي يكون المثقف داخل المجموعة المركزية ، وأنماط التشريع الذي يحتم بناء حالة من الاعتراف بين الأفراد ووسط مجموعة النخبة الفكرية ، وهناك أنماط التكريس الذي تسهم في إنتاج التعارف بين الوسط الجماهيري أفرادًا وإعلامًا"[1].

ومن يقرأ التاريخ وأحوال المجتمعات ، وقضايا الإنسان ، يعرف أن صفة الانتهازية لم تكن جديدة في المجتمعات الإنسانية ، فهي ثيمة موجودة منذ القدم ، وقد استغلها العديد من الذين يبحثون عن مصالحهم الخاصة ، الفردية والجماعية. وما دامت الانتهازية مرضًا اجتماعيًا يصيب الإنسان في سلوكه وأخلاقه ، ويتصف بالأنانية وحب الذات وتغليبها على المصلحة العامة ، فإنها هي وصاحبها يبحثان عن المنفعة ذات الخسائر الأقل والمكاسب الأكبر ، لذلك تجعل الانتهازية البعض يفكر في آليات من أجل الحصول على الغنيمة السياسية أو الثقافية أو الاجتماعية أو الاقتصادية ، وإن رفضنا هذه الثيمة فلأنها لا تصلح المجتمع بقدر ما تصيبه بالمزيد من الأمراض الاجتماعية التي تفسد الأخلاق والسلوك والفكر ، وتسهم في اجتذاب الشباب ذوي الوعي البسيط.

١- جيرار ليكلرك، سوسيولوجيا المثقفين، ص٧٦.

إن النظرة القاصرة في المجتمع تجاه أفراده أو بعضهم أو لفئة معينة تشكل خسائر فادحة ، بل تسبب أمراضًا مستعصية تبدأ في نخر الأجساد بدءًا من الفكر وتسير نحو العاطفة ، وتؤدي إلى ضعف أو فقد الألفة التي توارث عليها المجتمع ، وتزعزع القيم العليا ، ولكن لو كان العمل على نشر الوعي الوطني ، والانتماء إلى الوطن وأرضه ، واحترام قيادته ، والمحافظة على المكتسبات ، فإن ذلك يسهم في البناء وحل كل المعضلات التي قد تبرز سواء أكانت فردية أم جماعية ، "وهكذا دائمًا يواجه الجديد بالرفض ؛ لأن الناس يرون فيه خروجًا وتمردًا على ما ألفوه ، ومضت عليه أعرافهم وورثوه عن أسلافهم ، واستقر في وجدانهم ، وأصبح من الثوابت في وعيهم"[1].

علينا الالتفات إلى ما يعترينا من تحديات ماضوية وحاضرة ومستقبلية ، أي ألا ننظر إلى الماضي وتراثنا وكأنه شيء ترك ، ولا يصلح لعالم اليوم ، في الوقت الذي لا نعرف عنه إلا الشيء القليل ، بل أن المجتمعات الإنسانية لا تنهض إلا حين تحدث المراجعة لكل الأنماط الاجتماعية والسياقات الثقافية والفكرية والحضارية بدءًا من الماضي وعيشًا في الحاضر وتطلعًا للمستقبل ، إذا رغبنا في بناء مجتمع يركز على مقومات داعمة نحو الأفق والتطلع نحو الأفضل ، لذلك العودة إلى تاريخنا الحضاري لا يعني

١- أحمد الفلاحي، حول الثقافة، ص٥٠.

التمسك بكل جذوره ومعطياته ، والأخذ به كليًا لنعيش من خلاله حاضرنا ، وإنما نتعامل مع الماضي بوصفه "أساس نهضة يجب الارتكاز عليها في نقد الحاضر ونقد الماضي القريب ، الملتصق به المنتج له ، المسئول عنه ، والقفز إلى المستقبل"[1].

ولذلك فالمثقف حين يركن إلى الماضي والتاريخ ويقف عندهما ، فهو متعصب متطرف لا يقبل الآخر ، وكذلك يكون متعصبًا بالمثل ومتطرفًا بالقياس إذا ذهب للغرب وظل محاصرًا نفسه في حداثة غربية فقط ، حيث كثيرًا هنا ما يستعير الأدوات الغربية التي من خلالها يمكن له التعبير عن مجتمعه وتاريخه وتراثه ، وهذا يعني أن خطاب المثقف الحداثي يكشف عن رؤية تجاه الحضارة المعاصرة والحداثة في المجتمع التي تتمكن من تخطي ما خلفته العصور السابقة ، في حين يكشف خطاب المثقف التراثي على أهمية إحياء التراث والثقافة الماضوية من خلال المقومات الأخلاقية والاجتماعية والثقافية التي ترفض هيمنة الحداثة أو أي ثقافة أخرى ، لذلك لا ينبغي المغالاة في التمسك بأحد الاتجاهين ، ولكن الأخذ بالاثنين في ضوء التأملات والتأويلات والتفسيرات لهذه الظاهرة وتلك في سياقات الثقافات المختلفة التي يتمكن هذا المثقف الأخذ منها.

وهذا ما يجعلنا نؤكد على أهمية دور المثقف العربي فردًا أو جماعة أو تخصصًا ليكون دوره الثقافي متوازنًا بين طبيعة التفكير

١- محمد عابد الجابري، إشكالية الفكر العربي المعاصر، ص٢١.

وآليات الممارسة النقدية والثقافية للمجتمع ، في ظل الاعتراف من الماضي وتراثنا ، والأخذ الحداثة من الغرب ، وفي الوقت نفسه علينا ألا نتجاهل العلاقة الجدلية بين المثقف وماضيه وحاضره ومستقبله ، إن كانت علاقة عميقة وتسهم في نمو المجتمع وتطلعاته ، أم لاتنزال العلاقة مؤرقة ومأزومة.

وبهذا فإننا بحاجة إلى مراجعة مجمل أفكارنا وتطلعاتنا وحياتنا المختلفة ، فلا ينبغي جعل الكراهية والبغضاء والحقد على أية فئة أو طائفة أو عرق أو دين ، أيا كان إيمان الفرد وطبيعة تفكيره وتوجهاته الأيديولوجية ؛ لأن "الدين هو علاقة بين العبد والخالق ، أما المذاهب الدينية في أشكال مختلفة في فهم البشر لكيفية الاعتراف بتلك العلاقة والتقيد بها ، وعليه لا يمكن فرض معتقد ديني أو مذهبي على أحد ، فالإنسان حر في علاقته مع الخالق ، كما أن هناك فرقًا كبيرًا بين التدين والتعصب ، فالتدين الصحيح يدفع إلى التسامح والإخاء والمحبة ، أما التعصب فإنه يدفع إلى الكراهية والحقد والانغلاق على الذات"[1].

وبمعنى آخر لا أتصور أي مجتمع من المجتمعات يرفض النقد والمحاسبة والتقييم ، لما لهذا من أهمية في ترشيد المجتمع ، والمحافظة على مقدراته ومكتسباته المختلفة ، ولكن لا بد أن يكون هذا النقد يصب في الصالح العام ، وفي البناء ، وفي تحول المجتمع من حلة غير

١- ناصيف نصّار، نحو مجتمع جديد، ص٢٧- ٢٨.

مقبولة إلى حالة أفضل تحديثًا وتطورًا ، لا أن يكون النقد هدامًا مسيئًا ، مفككًا النسيج الاجتماعي والوطني ، والتعايش السلمي ، ولا يكون عاملاً يأخذ المجتمع إلى الماضي السحيق ، ويعرقل عجلة التقدم ، حيث الهدف من النقد هو "هدم المباني والمرتكزات لمنظومة معينة ، وإحلال منظومة أخرى محلها ، وهذا الأمر يحتاج إلى قبليات ومبان خاصة ، وفي حال عدم توافرها لا يمكن نقد نظام معرفي أو منظومة علمية وثقافية"[1].

ولكن هذا لا يعني أننا لا نطرح على أنفسنا السؤال الذي ربما يشغل المجتمع ، حينما نرى بعض الأفراد وقد برزوا في ظرف ما ، وضمن سياق سياسي أو اجتماعي أو ثقافي ، وذلك من خلال المناقشات والحوارات ومدى التباين والاختلاف حول رؤى هؤلاء المثقفين ، فنسأل بشكل طبيعي عن أصل هذا المثقف ، وطبيعته الاجتماعية ، ووظيفته السابقة والحالية ، وموقعه الاجتماعي في المجتمع ، وبين أفراد جماعته بصورة عامة ، وشريحة المثقفين وأصحاب الفكر بصورة خاصة.

وهذه التساؤلات أو الأفكار ليست غريبة أو شاذة ، وإنما هي حالة صحية وطبيعية تجاه من يظهر فجأة في المجتمع ، ويتحول من إنسان غير معروف إلى علامة من علامات الحراك المجتمعي. إننا نحلم أن يكون المثقف على دراية تامة بدوره الثقافي والاجتماعي والتنويري

١- عبدالكريم سروش، التراث والعلمانية، ص٦٥.

ضمن سياق معرفة كلية تؤكد أن كل القضايا المجتمعية التي ينخرط فيها المثقف لابد أن تناقش ، وتحلل وتفسر ، وفق آلية تسهم في إحداث تغيير أفضل.

هناك تحديات كثيرة يوجهها المثقف في وقتنا الحاضر مع ثورة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات ، وشبكة الإنترنيت ، إذ أصبح العالم قرية كونية ، حيث سرعة الاتصالات يمكن للمرء الحصول على ما كان يقدمه المثقف في سنوات أو لنقل في أشهر بعدة دقائق أوثوانٍ ، لهذا على المثقف أن يفكر في دوره وكيفية نسج علاقاته الثقافية ، ولكن للأسف لماذا كان المثقف العربي مهمشًا في الواقع المعيش على الرغم أنه يمثل شريحة مهمة في المجتمع ، وبناء مشهده الثقافي عامة ، فهل هذا التهميش جاء بناء على ما تمثله شخصيته وقدراته المعرفية وأدواته ومفاهيمه؟ أم بناء على المناخ السياسي والاجتماعي والثقافي العام في الوطن العربي؟ أم وفقًا لنظرة المجتمع القاصرة تجاه المثقف ودوره ، بمعنى النظرة المصحوبة بعقدة الخوف من المثقف.

وبسبب بعض المثقفين نخر مجتمعاتنا الفساد الثقافي المباشر وغير المباشر ، من خلال بروز وجوه غير قادرة على تمثيل المشهد الثقافي ، ولا تملك القدرة على الإنجاز ، فما تقدمه هو تمثيل لرداءة المنجز ، حيث الادعاءات الفارغة من قبل هؤلاء ، الذين يملكون التأثير القوي على ضعفاء التعامل الثقافي والوعي المجتمعي ، مما يسهم تدريجيًا في تحويل المجتمع الثقافي القادر على البناء والتطوير والتحديث وقراءة

كل تمفصلات المجتمع والواقع المعيش ، إلى مجتمع محاط بهالة من الأفراد الذين لا يملكون ما يسهمون به ، بل يحولون المجتمع من دون إرادته من مجتمع مستقل ثقافيًا وواع اجتماعيًا إلى مجتمع مهزوم ثقافيًا ، في حياته ووجدانه وحاضره ومستقبله ، فضلاً عن معاناة المجتمع من التخلف في شتى مجالات الحياة ، وهذا ليس انتقاصًا من المجتمع العربي ، وإنما قياسًا لما تكشفه الدراسات التي تتحدث عن التعليم والأمية والصناعة وطبيعة المجتمع الاستهلاكية وليس الإنتاجية.

وهنا ينبغي أن نعرف المشكلات التي تواجه المجتمع ، والحاجة إلى البحث عن الحلول ، فلا نقف عند المشكلات فحسب ، بل علينا أن نقوم بعملية التحقق من وجودها ، ومدى استيعابنا لها ، وقناعتنا في مناقشة وجودها ، والحلول الناجعة لها ، وهو ما يتطلب وضع الخطط والوسائل ، وعلمية القيام بتنفيذها ، من أجل إحداث التغيير المنشود. لكن من المؤسف أننا كثيرًا ما نجد المشكلات التي يتصدى لها المثقفون ، يأتي حلها عبر فكر أحادي فردي ، أو فكر أحادي مؤسساتي ، بمعنى إما أن يسعى المثقف للحل ، من خلال مجموعة من الأفكار التي يؤمن بها كأفكار مطلقة ، أو تقوم منظمة مدنية بمفردها ، وكأن المجتمع لا يتغير إلا بواسطتها ، وهذا عادة ما نجده في المنظمات السياسية على اختلاف مسمياتها(روابط—جمعيات—نقابات—أحزاب—اتحادات.....إلخ) ، وهذا يأخذنا إلى الفكر الذي حمله بين المفردات هذان البيتان ، إذ يقول

الشاعر:

الــرأي كالليــل مســوّد جوانبــه

والليــل لا ينجلــي إلا بإصبــاح

فاضــمم مصــابيح آراء الرجــال إلى

مصــباح رايــك تــزدد ضــوء مصــباح

المبحث الخامس

موقف المثقف
من أحداث العالم العربي

وقد برز مع جل الأحداث التي عصفت بالعالم العربي ، بدءًا من٢٠١١ ، وحتى كتابة هذا الكتاب ، الفكر المؤدلج المتسم بالروح الدينية المتطرفة الواضحة ، والطائفية والعرقية ورفض الآخر ، وبالأخص بعد وضوح الرؤية ، وتكشف دلالات بعض المطالب ، والشعارات والتوجهات ، فصبغت الحياة كلها بهذا الطابع ، وراح رجل الشارع الذي لا يفقه إلا القليل جدًا من بعض التعاليم الدينية عامة ، والإسلامية على وجه الخصوص ، وكأن المصالح الشخصية أو العقائدية أو الطائفية أو المذهبية أو الأيديولوجية هي التي ستقدم المفتاح إلى هؤلاء الذي راحوا مع الأحداث بتدمير معظم البنى التحتية ، وخلخلت العديد من المعتقدات التي كان الإنسان العربي يؤمن بها ، وفي خضم هذا الهياج يحضر ما كان يقوله سقراط في كتابه محاورة الجمهورية التي يعني: "أن المصلحة الفردية لا يمكن أن توفر أبدًا أساسًا كافيًا لحياة سعيدة وعادلة أو متمدنة"[1].

وفي إطار ما سمي بالربيع العربي الذي انطلقت موجاته في العام

١- جون إهرنبرغ، المجتمع المدني – التاريخ النقدي للفكرة، ص٣١.

٢٠١١ ، حيث كانت المطالبات كلها محصورة – على اختلاف آليات المطالبة – في تحسين الوضع المجتمعي ، أفرادًا ومجتمعات ، حقوقًا وواجبات في سياقاتها السياسية والاجتماعية والأمنية ، ولكن لم ينادِ في شكل خطط واستراتيجيات وأبعاد في الجانب الثقافي ، أي لم يظهر أو يواكب هذا الربيع السياسي ، ربيع آخر يمكن تسميته بالربيع الثقافي العربي ، على اعتبار أن أي حراك مجتمعي إذا لم يحكمه بعد ثقافي وفكري ومعرفي وفلسفي ، يصاب بالشلل والتراجع ، أو بالانحراف ، وهذا ما حدث لعدد من الدول العربية التي شملتها المطالبات ، إلا أن الوضع العام في هذه الدول كسوريا واليمن وليبيا مثلا.

ولذلك تشير الدكتورة زهيدة درويش جبور في دراسة لها بعنوان (مشكلات الثقافة العربية تجاه التحوّلات الجديدة) قدمتها في الندوة التي أقامها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت في العام ٢٠١٣ ، إلى أنه "ليس من علاقة سببية بين هذا الربيع والثقافة العربية السائدة ، بل ربما أتت هذه الانتفاضات لتكشف فشل هذه الثقافة في إنتاج مشروع اجتماعي وسياسي وفكري يواكب تطلعات الشعوب ويستجيب لطموحاتها"[١].

هذا الرجل وغيره من بعض فئات المجتمع العربي ، سعوا ليبرروا الأفعال والأقوال ، وما يلتصق بالأحداث ، سواء بشكل مراوغ في

١- مجموعة من الباحثين، ارتدادات الربيع العربي – ربيع العرب ما له وما عليه، ص٤٣.

تفسير القضايا وتحليل المواقف ، أو بالدفاع المستميت عن الفكر الذي تؤمن به هذه الفئة أو تلك ، علمًا أن الحالة الاقتصادية والمستوى المعيشي للأفراد أهم بكثير من شعارات تحاكي الرغبة في السيطرة من خلال الدين ، وليس شعارات تلامس الروح الفردية والجماعية ضمن السياق الديني بدلاً من السياق الاجتماعي أو المعيشي ، والمستوى الاقتصادي.

ما يحدث في عالمنا العربي بدءًا من العام٢٠١١ ، وعلى أثر صعود تيار الإسلام السياسي من جهة ، وحضور فئة الشباب الأقل من العشرين أو فيها في مشهد هذا التيار من جهة أخرى بدأ الإسلام السياسي يأخذ مساحة كبيرة في العالم العربي ، وفي الوقت الذي لا يختلف اثنان على مطالبة الحكومات بالتعديل والإصلاح والتطوير في شتى ميادين المجتمع العربي في سياق المجتمعات المدنية ، وضمن ظواهر التمدين في العالم ، وكذلك مع ثورة المعلومات والتكنولوجيا ، والتأكيد على احترام كل الحريات المسئولة والهويات المختلفة.

ونجد هذا التأسلم يعود بالمجتمع إلى قرون ماضية ليفرض على أفراد المجتمع الحديث قناعات كانت آنذاك سائدة وصائبة وصالحة بحكم ظروف تلك المجتمعات الاجتماعية والسياسية والثقافية ، وهذا يعني أن "أمرض السياسة تسببها القوى نفسها التي تصيب الأفراد بالمرض"[1] ، لكن في طور التمدين المجتمعي والتحديث الذي لا

١- جون إهرنبرغ، المجتمع المدني – التاريخ النقدي للفكرة، ص٣٣.

مفر منه لم يتعد كل ما كان ممارسًا في الماضي صالحًا للعيش معه في الحاضر أو ضمن الرؤية المستقبلية.

لا أحد يختلف أن تطوير المجتمع بحاجة إلى القضاء على الترسبات الماضوية التي تعيق حركة التطوير ، والعمل على معالجة الأمراض المتجذرة في العالم العربي من فقر وجهل ومرض وأمية وانتشار ثقافة الاستهلاك المزري. ومن المعروف أن الأحزاب السياسية والجماعات الحقوقية في العالم العربي تنادي عبر أدبياتها المختلفة ونشاطها المتنوع لمحاربة الفقر والفساد والبطالة وتحسين أوضاع المجتمع العربي تعليميًا واجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا ، وهي مناداة لا يرفضها الداني والقاصي في أية بقعة عربية من الفرد العادي إلى أرس السلطة السياسية ، ولكن ألا تكون هذه المطالبات والمناداة بطرق تسحب أفراد المجتمع أو بعض فئاته إلى العنف والتطرف وإرهاب الآخرين ، وإنما بالقنوات الشرعية التي تؤكدها السلطات الثلاث في أي مجتمع مدني.

وفي خضم الهيجان والمطالبات والدعوة إلى التغيير ، وفي وقت بدأت التيارات الإسلامية في التحرك الشعبي ومسك زمام أمور المطالبات ، ظهرت فئات مثقفة لتدخل في هذا الحراك عبر وسائل التواصل الاجتماعي متخلية بعضها عما كانت تؤمن به من فكر مخالف لما هو في الشارع من جهة ، والاصطفاف إلى حركة الجماهير ، فبات هؤلاء المثقفون يتشدقون بالكلمات واللغة والطرح ما يستقونه من الشارع في موضوعات ومقالات وأعمدة ، بل حاولوا

نشر العديد من الغريدات والنصوص القصيرة التي تدعم الحراك العربي دون التأمل في نتيجة هذا الانجراف الذي أفرز المذهبية والطائفية والتمركز في بناء المجتمعات حول الدين ، وغياب صوت العقل وحلم النهضة العربية والتفكير التنويري بأن يكون المجتمع العربي تحت راية الدولة المدنية التي سعى أجيال الأربعينيات حتى الستينيات إلى جعل الدول العربية قائمة على مشروع نهضوي ومدني.

وهذا يعني أن لا أحد ينكر حاجة الإنسان العربي إلى المزيد من الحرية والكرامة ، وإلى تغيير وضعه الاقتصادي ، وإلى حاجته إلى الأمن والاستقرار وغيرها من المطالب ، لكن لو نظرنا إلى كل الدول العربية أو غير العربية في الشرق وفي الغرب ، فسنجد أن سياساتها ونظمها تختلف عن بعضها البعض ، وإن كان الاقتصاد محرك التاريخ ، ومغير حياة الشعوب ، الأمر الذي جعل بعض الحكومات ترسم لها رؤى وتوجهات مبنية على فلسفة واستراتيجيات وخطط محكومة بالتشريعات والقوانين والأنظمة ، لكن الإنسان عادة لا يركن إلى ما هو موجود في المجتمع ، وبخاصة فيما يتعلق بالأمن الغذائي والاجتماعي والصحي والمهني والتعليمي وغير ذلك.

وهو ما طرأ على العالم العربي مع بداية العقد الثاني من الألفية الثالثة ، وبالتحديد في العام٢٠١١ ، حينما أشعلها الشاب التونسي محمد البوعزيزي الذي أحرق نفسه حزنًا وكمدًا وألمًا وغضبًا ، مترجمًا لحالته الاقتصادية والنفسية والاجتماعية ، دون أن يعلم أو

يخطط أن سخطه هذا سيكون شرارة تغير بعض الأنظمة العربية ، وتحدث القلاقل في بعضها ، فهو لم يفكر في هذا ، ولم يترجم غضبه بالهجوم على الشرطية والرد عليها بالعنف ، وإنما العنف أوقعه على نفسه ، لتستمر حالة التوتر والغليان الشعبي ، منطلقة من منطقته المحصورة في قرى ومدن تونس ، وليستمر أوارها ممتدًا إلى بعض البلاد العربية التي دخلت في منزلق يشوبه عدم الاستقرار الاقتصادي ، والاضطراب السياسي ، والفوضى في السلوك الاجتماعي ، مما أثر بشكل كبير في العلاقات الإنسانية والاجتماعية والمهنية بين أفراد المجتمع الواحد.

وفي خضم هذا كأن هناك قوى تلعب دورًا في تشتيت شمل هذه الأمة ، قوى تمارس دور المنقذ ، وفي الوقت نفسه تحطم كل البنى ، والثقة ، وتفشل كل ما وصل له أفراد المجتمع العربي ، وهذا ما أوضحه غازي القصيبي بقوله: "كل ما لدينا من تجارب عبر التاريخ الطويل ، تؤكد وجود عامل واحد في كل النزاعات البشرية ، وهو السياسة ، وأعني بها الصراع من أجل القوة ، يقتتل البشر لأسباب دينية ، أو لخلافات حدودية ، أو بدافع الكرامة القومية ، أو لاعتبارات اقتصادية ، أو على كرة القدم. إلا أن في كل حالة من الحالات نجد قادة سياسيين يديرون النزاع ، ويستهدفون الحفاظ على قوتهم أو زيادتها"[1].

١- غازي عبدالرحمن القصيبي، العولمة والهوية الوطنية – مقالات، ١٣٥-١٣٦.

ولكن ماذا بعد اشتعال هذه الشرارة التي عصفت بالبلاد العربية ، وخلخلت البنى المجتمعية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، لتفرز النوازع الدينية والطائفية والمذهبية والشخصية والعرقية واللونية والهوية على اختلاف مشاربها وأنواعها ، وإن تباينت درجاتها وأثرها من مجتمع لآخر. وقد دخل في هذا كثير من أفراد المجتمع وشرائحه وطبقاته ، وإن تعددت أسباب هذا الدخول والانخراط ، حيث هناك من كان راغبًا في معرفة ما يجري عن قرب ، وهناك من كان مقتنعًا بهذا الحراك ، وآخر فرض عليه حصار التبعية وأصبح أداة ، وهكذا دواليك ، بل اتجه العديد إلى الميديا والصحافة الورقية والإلكترونية ووسائل التواصل الاجتماعي ليوضح رأيه المتفق أو المختلف أو الذي لايزال آنذاك بين بين.

وبهذا دخل في الشبكة المعقدة فعلاً وفكرًا وثقافة ، بعض من شريحة المثقفين والكتاب والمبدعين ، وأصحاب الفكر وحاملي الإيديولوجيات على أكتافهم ، والمنادين بها في محافلهم ومنتدياتهم ، فزخرت المواقع والقنوات الفضائية بالموضوعات والتحليلات والمداخلات والتعليقات مع أو ضد هذا الحراك ، ومع أو ضد الأنظمة السياسية ، ووصل الأمر إلى الاتهامات والتوصيفات الخارجة عن مألوف الذوق ، والصيغ الصحفية ، والكتابة المؤمنة بالاختلاف ، وهذا ما سماه إدوارد سعيد بـ(المثقفين البديلين) وأن كان حديثه عن بعض المثقفين الأمريكيين في أثناء حرب الخليج الثانية ، بل يؤكد أن الحرب

نفسها شطبت العراق دولة وشعبًا وثقافة وتاريخًا[1].

ولكن ما زاد من عمق الجرح العربي في العديد من الدول العربية أنه حين يستقوي طرف من أطراف النزاع داخل المجتمع وتبدأ عملية السيطرة فإن هذا يضعف من نسبة الثقة التي بنيت بين أفراد المجتمع الواحد سواء أكان أفراده يدينون بدين واحد أم تحت لواء طائفة واحدة ، أم لهم فكر مؤدلج واحد ، فإن هذا الاستقواء يخلخل النزعة الوطنية والانتمائية للأرض والوطن والحياة ، كما تنعدم الطمأنينة ، ويُفقد الأمن.

وهنا تبرز بعض التحديات في المجتمع لتبدأ صغيرة فتكبر تدريجيًا كلما توغل هذا الاستقواء من جهة وضعفت الثقة من جهة ثانية ، ومن هذه التحديات: العنف والعنف المضاد ، واتساع رقعة الخلاف بين الأطراف المتنازعة مكانيًا وزمانيًا ، ثم ظهور ارهاصات العنف والتطرف والاقصاء ، وهذا كله يؤدي إلى فقدان الثقة من قبل الدول العالمية الكبرى ، ومن المنظمات المعنية بالشأن السياسي والحقوقي.

وهذا ليس غريبًا إذ كان بعض أفراد المجتمع العربي ينظر إلى المثقفين وكأنهم سبب فيما يحدث إلى العالم العربي من مشكلات وحدوث نزاعات ؛ لأنهم أي المثقفون لا يقدمون الحلول لحل جل المشكلات والقضايا التي تعصف بهذه المنطقة أو تلك ، واكتفوا أن يكون دورهم في التحاور فيما بينهم ليس بغرض الوصول إلى الحلول ،

١- انظر: إدوارد سعيد، السلطة والسياسة والثقافة، ص٣٨٧.

بقدر تحاورهم حول ما يختلفون عليه مزايدة ومناكفة. وإن كان ما يطرح من رأي تجاه المثقف العربي صحيحًا ، فإن الواقع المعيش يكشف بعضًا من هذا الاتجاه ، والمعني هنا المثقفون الذين يحملون معول الحفر لتوسعة المجاملات وتلميع الحلول نفاقًا ومحاباة ، طامعين للحظوة بمنصب فني أو إداري.

وضمن هذا وذاك هناك طرف ثالث من شريحة المثقفين ، وقفت تتأمل ما يحدث بعدما آمنت بضرورة الابتعاد عن كل هذا ، لما فيه من منزلقات خطيرة تأخذ البلاد العربية إلى هاوية لا يعرف قرارها ، فهؤلاء كان موقفهم متمثلا في مشاهدة الأحداث ، ومتابعتها عن كثب ، وفي الوقت نفسه هم مبتعدون عن المشاركة أو الخوض في غمارها ، فلم يعلنوا موقفًا ، وفضلوا الابتعاد بحسب قناعاتهم ، وربما اتخذوا هذا الموقف لاعتقادهم بأن الحراك لا يتوافق مع أطروحاتهم أو ما يؤمنون به من فكر وأيديولوجيا ، أو لأنهم عارفون ومؤمنون بالنتيجة التي ستؤول إليه ، وهي الاستحواذ والسيطرة من طرف ، وتهميش الأطراف الأخرى ، أو لأنهم وصلوا إلى قناعة بأن الآتي ليس بأفضل ، وبخاصة أن الشارع العربي قد طغى عليه المد الذي لا يقبل الاختلاف ، وقد صدقت رؤاهم فيما بعد كما حدث في مصر التي فرضت عليها الظروف السياسية آنذاك إعادة قيام الحراك مرة أخرى لتتحوّل البلاد من حالة لأخرى خلال سنة ميلادية تقريبًا.

وهذا ما يؤكد أن طغيان المصالح الخاصة تصب في فئة أو حزب أو جماعة أو طائفة أو غير ذلك ، وقد تكون في المراتب العليا

لتجعل المصالح العامة هي الأدنى ، وبلا شك في هذه أثناء يبرز المتطرفون والفوضويون الذين يبحثون عن هذه المصالح ونيلها ، لذلك كان لابد من ظهور القوى التي تدعم الإصلاح والتمدين وفي سياقات الاعتدال والمناداة بالتعايش السلمي الذي فقدته الدول العربية كثيرًا ، وبالتحديد التي تعرضت إلى مرض هذه الانتفاضات ، أي أن "القوة الموحدة في العقل توفر العامل الذي يجمع الروح والمجتمع المدني معًا ، فقوة العقل هذه هي التي تظهر الحقيقة المفردة التي تنظم العالم"[1].

أما ما حدث في كل من ليبيا وسوريا والعراق واليمن ، فكان شيئًا داميًا ، إذ كانت الأحداث فوق التصور ، بل تحولت إلى حروب داخلية بين المجتمع الواحد ، ونزاعات بين أطراف الوطن الواحد ، متحاربة على الكرسي والسلطة والقرار السياسي ، وجاءت النتائج صواعق على الشعوب بعد ما اعتلت هذه الأحزاب سدة الحكم لتعلن سياستها ذات الرأي الواحد ، والفكر الواحد ، والسلوك الواحد ، وهكذا برزت هذه المزالق في بعض البلاد العربية ولاتزال إلى يومنا هذا ، وكأن الأفق بات مظلمًا في حل أي أزمة يرى فيها المجتمع تعطيلًا للبناء والاستمرار في التنمية.

وهنا أليس علينا جميعًا في العالم العربي أن نتساءل حول العنف والقتل والتشويد الذي يحدث حاليًا في المجتمعات ليست العربية فحسب ، وإنما في كل المجتمعات العالمية من نسف إلى

١- جون إهرنبرغ، المجتمع المدني – التاريخ النقدي للفكرة، ص٣٦.

التراث الحضاري ، ونبذ للآخر ، وإقصاء الفكر الذي لا يتوافق مع هذا التيار أو ذاك ، هل هذا من صلب مبادئ الديانات السماوية أو الوضعية؟ تلك التي تؤكد كل شرائعها وقوانينها احترام الإنسان وحقه في العيش بسلام وطمأنينة ، حيث إن توظيف العنف والإقصاء والتكفير لا شك أنه يؤدي إلى المزيد من الاحتقان والاضطراب وعدم الاستقرار في المجتمع ، وهذا يأخذنا إلى السؤال حول المأزق السياسي وعلاقته بالثقافة ، أي هل يؤدي المأزق السياسي إلى مأزق ثقافي ، أم يستطيع المشهد الثقافي استنهاض المجتمع العربي متمسكًا بالوعي النقدي؟

ومن يتأمل المتابع لأحداث العالم العربي ، ضعف الانتماء القومي ، فلم يعد الشائع هو ذاك الشعار المعني بكل جغرافية الوطن العربي أرضًا ولغة وشعبًا وحدودًا وهوية ، ومع هذا الضعف برزت عوامل أخرى كبعض الحركات التي تشير في معطياتها إلى أنها صحوة إسلامية ، كما كانت من قبل صحوة لدى بعض المسيحيين وأخرى لليهود ، وبهذا بدأ العالم العربي يتجرع ويلات هذه الحركات الدينية ذات الملامح المتطرفة التي آمنت بفكر يخالفها الملايين من البشر في العالم كله متناسين أن كل المواثيق الدولية المعنية بحقوق الإنسان تؤكد على الحرية الدينية والمعتقد في ظل عالم تسوده روح التفاهم والتسامح والسلام ، من هنا نحن بحاجة إلى " لغة نقدية وثقافة نقدية واسعة النطاق ، لا إلى شتائم متبادلة ومرادفات بلاغية للقتل السياسي "[1].

١- إدوارد سعيد، السلطة والسياسة والثقافة، ص٣٩٤.

التطـرف:

كانت مفردة الإرهاب والعنف ولاتزال ذات دلالات نسبية وغير مطلقة، وذلك بحسب الرؤية والجهة والهدف، فما هو إرهاب عند فئة معينة أو جهة سياسية ما أو لدى سلطة من السلطات الاقتصادية أو الاجتماعية أو حتى الثقافية، قد يكون غير إرهاب عند الأخرى، وبالأخص تلك الفئة التي تمارس الفعل نفسه، وتطبقه في الواقع المعيش، ولكنه مهما اختلف وتباين في المفهوم والدلالة فإن الإرهاب يتمحور في مجموعة من المناحي والدلالات، فهو لا يخرج من دائرة كونه قد يكون ضد نظام سياسي معين، يسعى إلى الإطاحة به والنيل منه.

وهنا يتلاقى العنف ضد العنف، ويكون أيضًا ضد من خرج على النظام السياسي، حيث تبدأ التصفيات والمحاسبة بين الفئات الواحدة التي كانت متحدة ضد نظام دولتها السياسي، وكما يقال إن الثورات تأكل أبناءها، وربما يتمظهر الإرهاب والعنف بعد محاولات أي قوى في تسيير أمور الدولة وتفشل، وهنا تغطي هذا الفشل بنوع من الترهيب والترغيب والعنف، وقد تزرع الكراهية وحالات من الإقصاء لبعض الفئات دون غيرها.

وعلى الرغم من ذلك فإن كل المفردات التي تحمل دلالات التعصب والعنف والتطرف والإرهاب، هي دوال لم تكن محصورة أفعالها ونتائجها في بقعة مكانية أو مرحلة زمانية معينة، أو منطلقة من توجه واحد، بل هي مفردات عابرة للك الأمكنة ومتخطية كل

الأزمنة ، وقافزة على كل ما هو ديني أو أيديولوجي أو فكري أو فلسفي ، وتكمن في الاعتداد بالذات الفردية أو الذات الجماعية الرافضة للانفتاح على ثقافة الآخر وعلى المثقفين ، حيث ما ينتهج التطرف يرى أنه ملك الحقيقة المطلقة التي عبرها أو عبر جماعته سيتخلص المجتمع من كل ما هو مخالف بالنسبة إليه ، وهذا يعني أن المتطرف لا يسعى لاحتواء الناس ، بل تفريقهم ، ولا يؤمن بالتعددية ، وإنما بالأحادية ونمطية المجتمع.

كما أن التطرف أو العنف أو الإهاب مفردات لا تخرج عن كون دواخلها مرض نفسي واجتماعي وثقافي وعقائدي ، لما يتكشف منه دلالات الانغلاق على الذات المحصورة في ماضويتها ، أو المتصف في تركيبتها بالعنف والدمار والإقصاء ، والراغبة دومًا في محاربة الآخر المختلف والانفتاح عليه ، لذلك يرفض المؤمنون بهذه المفردات الترحيب بتنوع المجتمع فكريًا أو دينيًا أو تتعدد فيه الطوائف والقوميات والأجناس والمعتقدات ، علمًا أن الأديان السماوية جاءت لتغير أوضاع المجتمعات تدريجيًا ، ويتسع التغيير كلما اتسعت رقعة هذا الدين أو ذاك ، والمثال الأكثر وضوحًا اتساع رقعة العالم الإسلامي الذي بدأ في الدعوة منطلقًا من مكة إلى المدينة ثم الكوفة فدمشق ثم بغداد حتى باتت الكثير من الأمصار والمدن مقار لدعوة الناس سياسيًا ودينيًا عبر الدولة السياسية والدويلات التي خرجت من الدولة الأم كما في الدولة العباسية.

وهذا يعني أن دلالة هذه المفردات لم تعد حالات أو مشكلات ،

وإنما هي ظاهرة استفحلت في نخر النسيج الاجتماعي والثقافي في أي مكان تتواجد فيه ، الأمر الذي جعل الكثير من الشرائح المثقفة غير راضية للحالة التي وصل إليها العرب ، ولا يمكن تفسير حالة العجز أو عدم الرضا ومحاربة ما آل إليه المجتمع العربي إلا بحراك ثقافي يتمثله المثقفون والكتاب والأكاديميون والتكنوقراط من جهة ، وبحراك اجتماعي شعبوي يؤمن بأهمية التغيير ولكن ليس بالعنف والإقصاء ، إذ لم تخرج أوروبا من بوتقة عصور الظلام الذي خيم عليها إلى عصر الأنوار إلا بعد ما حدثت ردة فعل قاسية على التطرف الديني آنذاك ، وفصل الدين عن الدولة.

وحين الحديث عن الإرهاب والعنف في العالم العربي بعيدًا عن الدين أو الطائفة أو المذهب ، "فلا يصح اتخاذ الحاضر مقياسًا للماضي ، ومرآة صافية ، فالحاضر مهما قيل في مشابهته وفي مماثلته للماضي ، لن يكون صورة طبق الأصل له ، ومن هنا يخطئ حكم من يحكم على الإسلام قياسًا على حالة المسلمين ومظاهرهم في القرن العشرين"[1] ، فما بالك ونحن في على مشارف نهاية العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين ، مما يعني أن ليس بعض معتنقي الإسلام من يقوم بممارسة التطرف.

ولكن هناك منظمات دولية بعيدة كل البعد في حركتها عن أي نهج ديني ، لذلك فالإرهاب لم يقف عند هذه دول العربية ، وإنما

١- جواد على، تاريخ العرب في الإسلام، ص٤٤- ٤٥.

الأجنبية غربًا وشرقًا ، ألم تظهر الحركات الفوضوية والعدمية ، ومنظمة الألوية الحمراء في إيطاليا ، وجماعة بادر ماينهوف في ألمانيا ، ومنظمة العمل المباشر في فرنسا ، وهناك منظمات أخرى تشكلت في القارات الشرقية ، حيث يخطط هذا العنف والإرهاب ليكون موجودًا ببطشه وعنفوانه المدمر في كل بقعة جغرافية ، لتؤكد على نهجها وفكرها الطامح بالسيطرة على كل مقدرات الناس والحياة.

وعبر تاريخ العرب كانت المعتقدات الدينية السماوية والوضعية أدوات يستغلها الراغبون في السيطرة على مقدرات الشعوب فيوظفونها لتحقيق طموحات وأحلامًا سياسية ، واشتد ذلك حين تحولت الفترات الزمنية السياسية من خلال البعد الثقافي أو الحضاري أو المنجز الذي أنجزه الإنسان آنذاك من خلال السياسة ذاتها ، فجاءت لنا عصور تحت مسميات من قام بهذا الحراك أو ذاك ، مثل: الدولة الأموية ، الدولة العباسية ، الدولة الحمدانية ، الدولة الفاطمية.

وهكذا بات الدين يُستغل في السياسة كأداة لتحقيق غايات فردية أو فئوية ، لإيمان هؤلاء أن سهولة في إقناع الناس بأهمية الدين في صناعة السياسة ، والعمل عبر بعض الكتاب والمؤرخين والمؤلفين في "تاريخ الإسلام الذي حاول كل مؤلف صبغ الإسلام بالصبغة التي يريدها ويحملها ويعتقد بها مستشهدًا بذلك بخبر أو بأخبار ، مفسرًا إياها ، وشارحًا لها على وفق رغبته وهواه"[1] ، الأمر الذي يودي إلى

١- جواد علي، تاريخ العرب في الإسلام، ص٤٦.

تحديد هوية هذه الفئة أو تلك وفق ما يكتب من جهة وما يتم الاشتراك فيه من معتقدات قد تصل إلى حالة من التطرف والوحشية واللاعقلانية.

وبالرجوع إلى التاريخ العربي نجد أن بلاد الأندلس آنذاك إبان سقوط الدولة الأموية ثم الحروب الطاحنة التي حدثت بعد ذلك، برز دور القشتاليين وحربهم لكل من يخالفهم في الدين، إذ كانوا قد أمروا المختلفين عنهم دينًا بالاختيار، أما الخروج عن دينهم، وهؤلاء هم(المسلمون واليهود)، والدخول في الدين الذي يؤمنون به وهو(المسيحية)، أو الحرب والتشريد خارج تلك المناطق التي يسيطرون عليها، بمعنى أن بروز جماعات تكفيرية وأحادية النهج والفكر، وتمارس دور الإقصاء للآخر المختلف عنها دينيًا أو مذهبيًا أو طائفيًا أو قوميًا، أو ربما الاختلاف يصل إلى العرق واللون والجنسانية، كما أن "العنف الذي تولّد عن تدفق جماعات دينية وثقافية بواسطة التباين كان على نطاق يختلف تمامًا عن نطاق ذلك العنف الذي نجحت الطوائف المسيحية المختلفة في إنتاجه في قرون من الحروب والملاحقات الدينية"[1].

إن هذا الظهور يمثل امتدادًا لثقافة كانت تبرز بين الحين والآخر لدى بعض المتشددين في العالم أجمع، والإسلامي بشكل خاص بهدف البقاء على وجود فئة دون أخرى، وتهميش طائفة، أو

١- بريان باري، الثقافة والمساواة – نقد مساواتي للتعددية الثقافية، ص٤٢.

القضاء على بعض المكونات المجتمعية كما قد حصل إلى الأقليات في شمال العراق مؤخرًا حين سيطرت(داعش) على المنطقة ، وهذا كله لم يأت بغتة وإنما كان في سياق التخطيط الاستراتيجي ورسم السياسات التي تريد بسط النفوذ والسيطرة ، لهذا "أصبح النظر إلى الأفراد بناء على انتماءاتهم الدينية بلا شك أكثر انتشارًا في التحليلات الثقافية في السنوات الأخيرة ، وأدى التزايد على استخدام الهويات الدينية باعتبارها المبدأ الرئيس لتصنيف أهل هذا العالم إلى الكثير من الفظاظة في التحليل الاجتماعي"[1] ، وهذا لم يتم لولا فتح بوابات الصراعات والحروب الدينية والطائفية ، ونبش اختلافات الماضي وتاريخ التباينات ، ومحاولة محو ما قد بني من تطور يشكل اللحمة والتعايش والتناغم والتلاقي.

ويعود كل هذا إلى أن هناك في العالم كله أفرادًا استطاعوا أن يحققوا لهم مكانة في عقول الضعفاء وقلوبهم ، فحولوهم إلى دمى وضعوهم في ساحات العنف ، وممارسة الإرهاب بشتى الوسائل المتاحة لهم ، والممكنة التي تحاول هذه الأفراد توفيرها الذين لم يكتفوا بغرس علامات الشر والعنف في نفوس الشباب المغرر بهم والمستحوذ على عقولهم ، بل راحوا ينظّرون ويرسمون ويبنون الخطط التي تمكنهم من السيطرة والاستحواذ على العقول كاملة لتكون طيعة سهلة الانقياد ، لذلك أخذوا الدين هو المحرك الرئيس

١- امارتين صن، الهوية والعنف – وهم المصير الحتمي، ص٧٠.

بالنسبة لهم ، لاعتقادهم أن هؤلاء الشباب يفتقدون إلى الآمال ولديهم العجز ، ويعانون الإحباط ، وأن الدين هو اليقين الذي يفتح لهم آفاق المستقبل ، وقد استطاع هؤلاء الأفراد أو جماعاتهم أن يغرسوا المفاهيم والاستنتاجات التي يصيغونها ، وقد نجحوا في ذلك ، وهذا ما بينه جونيه لابون ، وهو أحد كبار مفكري فرنسا حيث يقول: أذا أردنا أن نقسم منطقة شمال أفريقيا فلابد أن ننظر إلى أن السكان هناك يتألفون من البربر الذين لهم حساسية مفرطة تجاه القومية ، والعرب الذين لهم حساسية مفرطة تجاه الدين ، ولكي نقسم علينا أن نطرح القومية بين أوساط العرب ، والدين بين أوساط البربر ، وبهذا يبدأ الخلاف والصراع وقد يصل إلى الحرب[1].

ومع هذا الغرس كانت هذه الأفراد حتى تمرر برامجها وتنفذ خططها أن تقنع ضعاف النفوس بما يدور في الواقع المعيش تفسيرًا لهذا الواقع من خلال هذه البرامج والفكر الإقصائي فيؤكدون على حالات الفساد للأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية التي أفقدت الناس حقوقها مما يجعلهم في عنفوان وانفعال لفعل أي شيء لصالح ما ينادون به ، وهذا العنف ولد عنفًا آخر من الدول والتكتلات السياسية مما أدى إلى حالة من الغليان في المجتمعات العالمية.

والعنف والتدمير والإرهاب صفات تكشف عن سلوك أو فعل يتسم بالعدوانية والتطرف مهما كان مصدره فردًا أو جماعة أو

١- انظر: علي شريعتي، مسئولية المثقف، ص٧٨.

طائفة أو طبقة من طبقات المجتمع ، أو دولة من الدول ، بهدف اخضاع طرف من الأطراف والسيطرة عليه ، ولكن هذا الفعل يسبب أمراضًا اجتماعية ونفسية واقتصادية وسياسية ، وباستمرار حدوث العنف كثرت الاغتيالات والقتل والدمار ، ولو أجريت دراسات استطلاعية عالمية أو عربية سنجد الأعداد الكبيرة التي راحت ضحية هذا العنف غير المبرر ، والإرهاب الجسدي والنفسي الذي أصاب جسد الأمم قاطبة.

ولو بحثنا قليلاً في صفحات الشبكة العنكبوتية حول الكتاب والصحفيين والسياسيين الذين لهم دورهم في كشف زيف التيارات التي تسعى إلى تدمير البلاد ، لعرفنا ذلك بشكل مأهول ، فكم من كاتب أو صحفي ، ومن مدني سواء أكان منتميًا سياسيًا أم غير منتم ، أكان مع السلطة أم معارضًا لكتا السياستين المعارضة المتطرفة والسلطة السياسية في ليبيا وسوريا والعراق ومصر ، وغيرها من الدول العربية والأجنبية ذهب ضحية هذا العنف والتطرف؟! في الوقت الذي كل المنظمات الدولية المعنية بالسلام وحقوق الإنسان تدين هذه الممارسات تحت أي مسمى ، وفي أي مكان أو زمان ، وتحت أي ظرف كان.

ومع هذا الاضطراب المجتمعي والسياسي والاقتصادي كانت النتيجة دخول العالم العربي في نفق خطير ، ليس لأن هؤلاء وقفوا مع أو ضد ، أو لأن الوعي بممارسة الديمقراطية لم تكن قد بنيت على قاعدة صلبة ، على الرغم من وجود أنظمة كانت تنادي بها ،

لذلك لم يحدث تغيير في هذه المجتمعات لما هو متوقع ، بل ما نراه ونشاهده ونقرأ عنه ، كان الأسوأ ، حيث التحوّل الذي طرأ ، وليس التطور في المجتمع ، التحوّل الذي يعني التغيير من حالة إلى حالة ، من دون أن تكون الأفضل ، وربما يعود كل هذا إلى أن ما حدث بعد فترة وجيزة من هذه الأحداث هو إلغاء الآخر ، إذ لم تكن البنية الفكرية المتوارية في اللاوعي متهيئة بشكل صحيح لقبول الآخر.

برزت على سطح الأحداث العربية جماعات متطرفة عربية وغير عربية ، كانت ولاتزال تتعامل بشكل تعتقد معه أنها تمثل توجهًا دينيًا محضًا ، فعمدت إلى نظم وقوانين خاصة بها تجاه قضايا المجتمع ، وتجاه النظم الحاكمة ، وتجاه الممتلكات العامة والخاصة ، ومحاربة الآخرين المختلفين عنها ، وكذلك تجاه الذين لا يؤمنون بفكرهم ، مما حدا ببعض الكتّاب والمبدعين إلى الكتابة سردًا وشعرًا حول ما يجري في العالم العربي ، بل المشكلة أن هناك من يدعي أنه أعطيت إليه صلاحية تغيير المجتمع وفق هواه ، وكأنه حصل على إنابة عن الدين ليمارس دورًا يعتقد في صالح الدين.

ولكنه بهذا يسيء إلى الدين وإلى الإنسانية ، وإلى الطائفة التي قد ترى نفسها هي الطائفة المؤهلة والقادرة بل والصالحة الخالصة والناجية التي لديها الحق في بناء المجتمع دون غيرها ؛ لأن كل الطوائف ضالة فاسدة تعرقل عجلة البناء والنمو ، لذلك يجوز محاربتها وقتلها ومحوها من الوجود ، بل لم يعد المتطرفون يعون

ويعترفون أنه "مازال الانتماء إلى مذهب دني أو الانتماء إلى إحدى الديانات الكونية الكبرى أمرًا له علاقته بالولادة ، إنه انتماء سلالي لجماعة معينة. إن ديانة الفرد هي ديانة المجموعة التي يشكل الفرد واحدًا منها بالولادة"[1].

وفي الوقت الذي ننتقد تلك المشاحنات والتباينات بين المثقفين أو بين بعض الكتاب تجاه التصنيف ليس السياسي فحسب ، بل الديني والطائفي والعرقي والاثني ، فإن هذه الحالة المرضية موجودة أيضًا في دول أخرى غير العربية – وهذا لا يعني الموافقة على وجودها في عالمنا العربي – وإن كانت بنسب متفاوتة ، فأوروبا مثلاً عندهم بعض الأفكار تعزز بعض الأسئلة والتفكير فيها بالنسبة للقارئ أو المتابع حينما يؤكدون في هذه الحوارات أو في الأدبيات على بعض المفاهيم والمصطلحات التي يكرسونها في حواراتهم ، مثل: "الغرب- الشرق ، المسيحية- الإسلام ، المسيحية اللاتينية- العالم البيزنطي ، العالم الكاثوليكي- العالم البروتستانتي ، وغيرها من هذه التقسيمات والتباينات"[2].

لم يقف العنف والإرهاب الذي يدور في فلك جغرافية العالم العربي ، وإنما صدرته بعض الجماعات إلى بعض الدول الآمنة شعوبها ، والمستقرة في حياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية ، صُدر الإرهاب فحدثت التفجيرات والدمار في أمريكا

١- جيرار كيكلر، العولمة الثقافية – الحضارات على المحك، ص٤٣٣.

٢- جامعة كل المعارف، ما الثقافة؟، ص٣١٨.

وفرنسا وبريطانيا وبلجيكا وغيرها من الدول الأوروبية ، حتى بات العرب والمسلمين يوسمون في الغرب بالإرهابيين ، وأن الدين الإسلامي دين يشجع على العنف والقتل ، وتحول الدين عندهم الذي ينادي بالتسامح والتعايش إلى دين إرهاب.

إن حياة الشعوب وجغرافيتها المكانية عادة ، تسهم بدور كبير في بلورة بعض المفاهيم تجاه الحياة والمجتمع والإنسان في السياق الثقافي كما في السياقات الأخرى ، حيث سكان المدن لهم ملامح ثقافية ونظم قد لا تجدها عند سكان الأرياف أو القرى ، وسكان الساحل لهم ما لا تجده عند سكان الداخل ، وهكذا تتنوع الثقافة بحسب المكان وجغرافيته ، والزمان وتحوله ، بل حتى المهن لها من النصيب الوفير في ملامح هذه الثقافة أو تلك. وهنا نتساءل أي الملامح التي جمعت ما حدث في تونس لينتشر في بقية الدول العربية الأخرى ، وما الملامح التي أسهمت فيما حدث بليبيا وسوريا والعراق؟

بعد أكثر من سبع سنوات خلت من هذه الأحداث نحتاج إلى وقفة تأمل ، وإلى كتابات في المجالات المختلفة في بعدين أساسيين ، البعد الأول هو العمل على أضفاء البسمة قدر الإمكان محل الدمعة والحزن ، وهذا دور الكتابات الإبداعية والأعمال الفنية الدرامية والمسرحية والسينمائية ، كما حدث في العالم العربي بعد هزيمة العرب في حرب١٩٦٧ ، وكيف عملت المؤسسات الثقافية والفنية على خروج الإنسان العربي المهزوم من بوتقة الحزن والإحباط ، وفقدان الأمل والحسرة على ضياع الحلم العربي ، إلى

بعض من الفرح والسعادة.

ووفق ما هو واقع ومعيش في العالم العربي الذي لم يعد مناخه صالحًا للعيش بسلام وطمأنينة في ظل هذه الحالات الإرهابية ، والخوف من المجهول والمصير ، بل نتيجة الإحباطات الكثيرة التي أصيب بها الشعب العربي المنادي بالحرية والمساواة والعدالة بعد مشاهداته وانحراف مطالبه ، ألا يحق لنا جميعًا الوقوف والمراجعة الحقيقية ، ومساءلة الذات في سياقات الظروف الموضوعية والذاتية المحية بالمجتمع العربي ، والأخذ بالاعتبار للمواثيق الدولية والقوانين ذات العلاقة بحقوق الإنسان والمطالب المشروعة؟

وفي الوقت ذاته كانت تسلط الضوء على نقد المرحلة بحسب رؤية صاحب العمل ، وبرز في هذا الجانب العديد من الأفلام السينمائية والمسرحيات الهادفة ، كما نحتاج إلى الدراسات البحثية لقراءة الظاهرة والحالات المتشعبة بشكل تحليلي ، على أن تكون هذه الدراسات بعيدة كل البعد عن أي انتماء ديني أو مذهبي أو أيديولوجي أو ميل إلى طرف من طرفي المعادلة(المعارض/السلطة) ، حيث باتت العروبة والقومية والنسيج العربي محل تساؤل من قبل الشارع العربي ، وموضع سؤال عن مدى الجدوى من الحلم الذي كان طريقنا في الحياة.

إن ما يحدث في عالمنا العربي ، ووصل إلى الدول الأجنبية الغربية تحديدًا من عنف وإرهاب يشكل تراجعًا حقيقيًا في مسيرة التنمية المجتمعية ، ويمثل خطرًا على ماضي هذه الدول وحضارتها

الذي لعب به ونسف الكثير منه وبالأخص ذاك التراث المادي ، وعلى حاضرها المهدد بالانهيار ، ومستقبلها الذي لا ينم عن بارقة أمل ؛ لأن الأزمات والنكبات والإحباطات متجذرة في عالمنا العربي حكومات ومؤسسات وأفرادًا ، حيث نعاني جميعًا من أزمة في التفكير وتحليل الماضي ، وفي عيش الحاضر ، واستشراف المستقبل ، كما لدينا أزمة في طبيعة وعي المجتمع بقضاياه المصيرية ، والاضطراب في التفكير بين ماضوية الحالة وحاضرها ومستقبلها مما أفرز أزمة في اتخاذ القرار الذي بات حائرًا بين هذا الجذب إلى غياهب الماضي نفسه وبين التطلع إلى مواكبة التحولات والتحديث في المجتمعات المتقدمة.

وهنا يمكن الرجوع بالذاكرة القريبة لمعرفة حالة الثقافة الإقصائية لدى الجماعات المتطرفة التي حاولت اغتيال الفتاة الأفغانية(ملالا) في٩/ ١٠/ ٢٠١٢ وهي في حافلة المدرسة ، حيث أطلق عليها أحد جنود جماعة طالبان الرصاص متعمدًا لقتلها ، ولكن لطف الله وإصرارها على تنفس الحياة الصحية ، ومواجهة ثقافة العنف التي يمثلها هذا الجندي وجماعته وفرضها على المرأة لأن تكون حبيسة البيت وبين الجدران الأربعة متوهمين أن هذا حفظ لها وستر يحميها من ملوثات العالم الخارجي ، ولكن هذه الفتاة حققت ما تطمح إليه النساء اللائي يقعن فريسة أو ضحية هذه الأفكار المتطرفة ، بل قادها إصرارها على حديتها في التعليم والحياة حصولها على جائزة نوبل للسلام مناصفة مع المناضل الهندي(كايلاشي ساتيارثي).

لقد امتدت يد العنف والإرهاب إلى الثقافة المادية ، بعد ما سعى إلى قتل الثقافية داخل الفرد ، فوصلت إلى ما كانت بعض الدول العربية تتميز به حضاريًا ، وليس تباهيًا وتفاخرًا ، بل لأن ما لديها من تراث حضاري يشكل عمقًا حضاريًا عالميًا ، لذلك كانت جل الآثار والحضارة مسجلة ضمن التراث المادي العالمي في منظمة اليونسكو ، وبهذا التخريب والعنف والإرهاب يمارس المنفذون له استئصال ذاكرة تاريخية وحضارية من عقول الفئات الصغيرة التي ما أن كبرت حتى تنسى جزءًا من تاريخها الثقافي.

وهنا نتساءل: ماذا يمكن أن نطلق على هذه الأفعال الهدامة! هل ما تقوم به هذه الجماعات من عنف وهدم للأضرحة ونبش للقبور وحرض ما يمثل الحضارة الإنسانية أهو انتقام إلى تاريخ ما؟ أو هو تشفٍ لواقع كان مزدهرًا بهذه الحضارة ، ومزهوًا بها؟ أو لعجز في فهم كنه هذه الحضارة؟ أو لأن هذه الثقافة لا تستقيم وحالة الانغلاق والإقصاء التي تنادي بها هذه الجماعات؟ وهذا ليس في عالمنا العربي فحسب ، بل في العديد من الدول ذات الحس الحضاري والإسهام الثقافي ، وهنا تشير إيزابيلا كاميرا المستعربة الإيطالية إلى أن "المافيا في إيطاليا قاموا بتدمير عدد من أمكنة التراث الحضاري والإنساني ، وهم مزهوون بذلك ، بل يقول أحد رجال المافيا: إذا قتل أحد القضاة سوف يتم استبداله ، وإذا قتل شرطي يحدث الشيء نفسه ، ولكن إذا تم تدمير برج بيزا على سبيل المثال ، فلا يمكنهم استبداله ، ومن ثم فإن الأضرار التي

سوف تلحق بالدولة ستكون فادحة"[1].

ولا شك أن مثل هذا الاحباط لا شك يفسد تلك الحقب التاريخية التي عملت فيها الشرائح الوطنية المثقفة ، والكتاب والفنانون على بناء جسور من التلاحم والتقارب والتعايش ، بل الانتصار. ولكي نعزز الانتماء الوطني والعربي ، ونبدد حالة الحزن المخيمة علينا ، لا بد أن نعمل معًا لمحاربة الفكرة التي بدأت تتغلغل في عقول الكثيرين من أن القومية العربية كذبة ، ومشروع انهار ولا وجود له ، لذلك واجب على الجميع الرجوع إلى الثقافة العربية ودراستها في ضوء التجارب والنتائج التي برزت إذا أردنا العيش في مرحلة جديدة لها متطلباتها وتحدياتها ، بل ليعرف المثقف العربي بوصفه أحد أفراد المجتمع ، أن سعادته تكمن في تلك القيم والنوازع الأخلاقية التي كان يستمدها من الفكر الذي ينتمي إليه ، بحيث هذه القيم تجعله فاعلاً وصادقًا وقادرًا على العمل الفردي والجمعي لبناء المجتمع ، فضلاً عن عيشه في سلام من دون قلق أو اضطراب أو مرض اجتماعي.

وفي خضم هذا العنف والإقصاء والإرهاب الذي يحاول المثقف قراءته وتحليل نتائجه ، فإنه لم يعود بذاكرته ومحاولة تقليب صفحات التاريخ وثقافة الماضي ليقف على تاريخ العنف لمعرفة الأسباب التي أسهمت في إرساء قواعده ضمن أجندة التاريخ

١- إيزابيلا كاميرا، مجلة الدوحة(ملف الإرهاب)، عدد٩٠، ابريل٢٠١٥، ص٢٥.

البشري ، ويكتفي دائمًا بقراءة النتائج وما أفرزته موجات العنف وحالات التطرف والدمار ، وإن معالجة هذه الظواهر غير الطبيعية في المجتمع تتطلب من المثقفين وأصحاب القرار السياسي والثقافي والاجتماعي هي مناداتهم بإيجاد أرضية مشتركة بين أفراد المجتمع لنشر ثقافة التنوير والتطلع والتربية القيمية الداعية للمواطنة من جهة ، وغرس مبادئ ثقافة الاختلاف ، وأهمية احترام الآخر في ظل التعددية الدينية والمذهبية والقومية واللونية ، فضلاً عن التعدد الحزبي سياسيًا أو اجتماعيًا أو اقتصاديًا.

العلاقة مع الآخر:

حين الحديث عن الآخر فمن المؤكد نذهب مباشرة إلى غير العربي أولاً ، ثم التجاه يكون إلى أوروبا وأمريكا ، تلك الأمكنة الجغرافية التي عادة ما ينظر إليها عندما يتم الحديث حول العلاقة الحضارية والثقافية والأدبية الحديثة ، ولكن أي مكان هذا بأوروبا الذي نعنيه نحن العرب عامة ومنطقة الخليج بالتحديد ، هل فرنسا أو بريطانيا أو ألمانيا أو إيطاليا أو اسبانيا التي لها اتصالات قديمة مع العالم العربي تمظهرت أكثر في الاتفاقيات والسيطرة على الدول العربية عبر استعمارها؟ أم هناك دول أوروبية أخرى غيرها ذات أهمية حضارية ومكانة ثقافية ، وبخاصة أن السؤال المطروح ليس على الصعيد الثقافي والتعامل مع الآخر ، بل على كل الصعد.

ولكن على الصعيد الثقافي ، فكثيرًا ما نربط أو نحاول الربط تجاه

العلاقة الثقافية وأوروبا بوصفهما الآخر تجاه الدول العربية ، لذلك يعاد السؤال مرة أخرى "عن أي أوروبا نتحدث؟ وإلى أي ثقافة؟ هل الست دول أم التسع أم الاثني عشر أم الخمس عشرة؟ هل نتحدث عن الاتحاد الأوروبي أم المجلس الأوربي أم مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا"[1].

وأي علاقة كانت مع هذا الآخر فهي بالتأكيد علاقة برزت منذ الزمن القديم ، وتمظهرت بشكل واضح في ازدهار العالم العربي والإسلامي في ظل الدول التي تعاقبت بعد الخلفاء الراشدين ، وكما هو معروف دور الخليفة هارون الرشيد ثم الخليفة المأمون في استقطاب العلماء والشعراء والمهتمين بالشأن الثقافي ، حيث كانت بيت الحكمة منارة ثقافية وعلمية في الدولة العباسية آنذاك ، ثم توالت العلاقة مع الآخر والتواصل معه ثقافيًا وحضاريًا على الرغم من المنازعات والحروب بين العرب والمسلمين من جهة والدول غير المسلمة من جهة ثانية.

وهذه إشكالية تكشفت بوضوح في نظرة الغرب للعالم الثالث عامة ، فمع "التوسع الأوروبي جغرافيًا أخذ مفهوم الحضارة ينتشر عالميًا ، ويقضي على التنظيمات الاجتماعية القائمة بمفاهيمها كالصين ، المكسيك والعالم الإسلامي ، وباتت الحضارة علامة مسجلة على أوروبا المسيحية ، وأصبحت المقارنة بينها وبين غيرها

١- جامعة كل المعارف، ما الثقافة؟، ص١٣٨.

على أساس مجموعة من المفاهيم المفروضة إجباريًا من ناحية ، ومن خلال تبرير غرس وتكريس الحضارة الأوروبية في بقية العالم من ناحية أخرى"[1].

ولكن حينما حطت الحملة الفرنسية رحالها على الأرض العربية حدث الانبهار بما جاءت به من عصر متطور في الحياة العامة والخاصة ، وفي طرائق السلوك الإنساني الاجتماعي ، وفي البعد الثقافي والتعليمي ، لذلك كان السؤال يتردد بين الحين والآخر على الإنسان العربي حول سر تقدم هؤلاء الأجانب وتخلفنا نحن العرب عنه في ركب الثقافية والتطور.

وأعتقد أن رواد النهضة العربية وقتذاك فكروا في الحراك الثقافي العربي انطلاقًا من الاندهاش والاستغراب الذي رأوه في العالم الغربي ، وما مقولة رفاعة رافع الطهطاوي حينما زار فرنسا إلا تأكيد على ما نذهب إليه ، ولكن السؤال بقي دون إجابة ، ويبدو لعدم انشغال العرب أنفسهم بالإجابة عن السؤال نفسه ، وبدلاً من التفكير في المفارقة هذه ، ذهب العرب إلى التاريخ والماضي من أجل استحضاره والتعايش معه بقناعة تامة على أنه السبيل الوحيد الذي سينهض بالأمة العربية ومواكبة التطور في العالم.

وعبر هذا التوهم والاعتقاد عاش العرب بعيدين عن مسايرة ما يحدث في العالم من تحديث للمجتمعات على مستويات مختلفة ،

١- فريدريك جيمسون وما ساوميوشي، ثقافات العولمة، ص٤٤.

حتى استفاق العرب أنفسهم من نومهم وتوهمهم ليصلوا بحالتهم إلى حل اعتقدوا بأهميته منذ ذلك حتى يومنا هذا ، ويتمثل في أخذ ما يناسبهم من ثقافة الآخر وفق حضارتنا وتراثنا وثقافتنا وقيمنا الروحية ، متوهمين مرة أخرى بأننا بهذا الأخذ نستطيع أن نخرج من عزلتنا الثقافية والعلمية دون أن نفكر مليًا أننا نؤكد على ثقافة استهلاكية لا ثقافة إنتاجية ، حيث "ثقافة الاستهلاك وشهوته تنطوي على أن الاغتراب هو(هم) أولئك الذين يهيمنون على القوة الاقتصادية أيمانًا منهم بأن المعاناة الروحية والإحساس بالغربة عن الذات هي التي تدفع الناس إلى فهم الشراء للسلع والخدمات على نحو لا حدود له ، اعتقادًا منهم أن ذلك يخفف من عناء الاغتراب الذي يكابدونه"[1].

وعبر التواصل مع الغرب وتعدد النظرة لنا نحن الغرب ، برزت مقولة يرددها الكثير عربًا وغير عرب ، مفادها: (أن العرب لا يقرأون ، وإن قرأوا لا يفهمون ، وإن فهموا لا يعملون) ، وهذه إهانة إلى العقل العربي الذي استطاع أن يصوغ حضارته ، ويتصل بالعالم الغربي ، وفلسفة اليونان التي كانت آنذاك مرفوضة في أوروبا ، فبعد ترجمتها إلى اللغة العربية يتلقفها الغرب من هذه الترجمات ، كما أخذو من منابع الحضارة العربية والإسلامية فكرًا وفلسفة وعلمًا ، أي أخذوا ما أنتجته عقول كل من ابن رشد ، الفارابي ،

١- ارثر أيزابرجر، النقد الثقافي – تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسة، ص٩٧.

الخوارزمي ، ابن سينا ، ابن خلدون ، ابن عربي ، وغيرهم من الكتاب والشعراء والسراد حتى يومنا هذا الذي انتشرت فيه ظاهرة الاتصال المباشر بالعقول المختلفة والمنجز الإنسان المتعدد.

إن المثقفين حينما قاموا في ستينيات القرن الماضي لترميم ذاكرة الإنسان العربي ، والعمل على خروجه من بوتقة الحزن ، كانوا يدركون جل الإدراك دورهم التنويري والتعبوي في دراسة حالة المجتمع وفهمه. وهنا لا بد من التساؤل فيما إذا كان لا يزال في عالمنا العربي من ينظّر لتحولات المجتمع وتقلباته وحراكه ، ويقدم الرؤى التي تعالجه وتقيه من مخاطر هذا التشرذم؟ هل تحاول المعارضة في العالم العربي الداعية إلى العمل من أجل الإنسان العربي النسج الحقيقي البعيد عن الذاتية والفئوية والحزبية مع السلطات الحاكمة والمسئولة ، لبناء مشروعنا العربي ؛ لنواجه به التحديات المختلفة التي تقف بالمرصاد تجاه واقعنا ومقدراتنا؟ أنضع ما يفعله الشباب الذين حملوا للتو القلم ، ليسجلوا انطباعاتهم المختلفة تجاه ما يحدث محل تقدير ودراسة من قبل العديد من فئات المجتمع؟ هل نترك الشباب الذي بدأ يفقد الطموحات والأحلام والآمال ، نهبًا لليأس والحسرة وسواها من المشاعر التي تنخر في ذاته؟

وفي خضم كل هذا ، نسأل ما دور الذات العربية في ما تستمع له ، وتتحاور فيه؟ ألسنا بحاجة إلى نقل أفكارنا للآخرين؟ والوقوف على الطرائق والأساليب التي نتمكن من خلالها عكس ثقافتنا

مؤكدين أن الثقافة العربية قادرة على التفاعل والتعايش والتواصل مع أية حضارة أو ثقافة ، وبوصفها ثقافة متميزة من ثقافة الغرب الذي لا يرى إلا ما يريده هو فعلاً ، ويرغب فيه ، وهو ما يجعل العقل الغربي يقوم على تفوقه كعرق وكثقافة وكحضارة[1].

أن التطرف ونبذ الآخر ليست حلولًا ناجعة في تواصل المجتمعات فيما بينها ، وإلغاء الحواجز التي شيدها الاستعمار ، وإنما هي سبيل إلى تعميق الفجوات وبناء المتاريس ورسم المنزلقات الثقافية والفكرية والحضارية ، وهنا علينا أن نفرق في معنى الآخر ضمن السياق الثقافي ، فلا نحصر المفهوم في محيطه المكاني كأن نقول الغرب ويقابله الغرب ، ولا في سياقات دينية ، كأن نقول المسيحي يقابله المسلم أو اليهودي ، أو يقابله معتنق الدين الوضعي كالهندوسية أو البوذية ، ولا في دائرة العصور ، إذ كيف ننادي بالمساواة والحرية وحقوق الإنسان ، ونحن لا نقبل العيش في هذه المجتمعات إلا وفق أنماط سلوكنا المحنط وتفكيرنا الإقصائي؟!

والآخر ذلك الذي يحمل الحضارة والثقافة ويتمثلهما بعلم ومعرفة وثورة معلوماتية ، ليبني جسورًا معرفية تتمظهر في التعايش والانسجام ، واستفادة(الأنا) أو (النحن) من جل ما لدى الآخر وهو ناقص لدينا ، فالآخر هو الحضارة والمدنية والحداثة ، وما تحمله من قوانين وتشريعات ومبادئ تسهم في تطوير المجتمع وتحديثه باستمرار ،

١- انظر: عيسى عودة برهومة، تمثلات اللغة في الخطاب السياسي، ص١٥١.

وهذا ما دعا إليه الأنصاري بقوله: "هناك الثقافة الإنتاجية التي تدعو الإنسان إلى التفكير، وتزرع فيه التفاؤل ، وروح الجد ، وتفتح أمامه آفاق الكشف والاختراع والعطاء والإبداع ، أما الوقوف عن الثقافة الاستهلاكية فإنها تخدره بالكسل والمتعة وتقتل روح التساؤل والتفكير ، وتحوله إلى عنصر سلبي"[1] ، بل علينا إذا أردنا أن نعبر عما نريده من آراء وأفكار وتطلعات التطلع إلى ما هو موجود عن الآخر ، وكيف تعامل معه وأبرزه فيما بعد.

لقد ربطت العولمة بين كل العلوم والثقافة ، وثورة المعلومات المختلفة عبر حالة اتصالية عابرة للحدود الجغرافية والمكانية والزمانية ، فهي محاولة مهمة في عالم اليوم شئنا أم أبينا لربط دول العالم ومناطقه وأجزائه ومنظوماته المختلفة بنظام عالمي كوني خرج من سيطرة الحدود الزمانية والمكانية والقومية والدينية والوطنية ، لهذا فالعولمة حركة دائمة التجديد والتواصل وبناء العلاقات للتبادل والتفاعل ، لذلك تسهم العولمة في أبعادها الثقافية والاجتماعية الافتراضية سهولة تدفق المعلومات من خلال ثقافة الصورة ، وثقافة الكلمة في إطار من قيم صنعتها العولمة نفسها ، مثل تحول مفهوم تسويق الثقافة ، والسياحة الثقافية ، والاستثمار في الثقافة ، وأهمية الثقافة في عرض السلع والمنتوجات.

من هنا لابد أن تكون كتاباتنا تأكيدًا على المعايشة مع كل

١- محمد جابر الأنصاري، تجديد النهضة باكتشاف الذات ونقدها، ص٢٥٣.

الثقافات الأخرى في المجتمع الإنساني ، والتحاور معها بكل أريحية وشفافية ، وتوظيف الشبكة العنكبوتية توظيفًا يحقق المزيد من التنوع الثقافي والتجانس بين البشر في المجتمعات المختلفة والمتعددة ، وفي الوقت نفسه ، علينا أن نلزم أنفسنا بالأخذ في كتابة الأعمال الإبداعية والنقدية والدراسات المختلفة ، الدقة والنهج الذي يضيء الحياة ، وليس النهج الذي يزيد من المحنة واتساع الفجوة بين العرب والآخر.

وعلى الرغم من الدعوات والنظريات القائلة بصدام الحضارات والثقافات ، وأنه لا يمكن أن نجد تواصلاً فيما بين هذه الحضارات أو هذه الثقافات ، بحكم الاختلاف في التكوين والتاريخ والتطلعات ، وبحكم التباين في الإمكانات والتحديات وغيرها ، وأن العولمة هي التي ينبغي أن تتسيد وتكون صاحبة السطوة في العالم ، على كل مقدرات الإنسان والمكان والزمان ، بدءًا بالاقتصاد وانتهاءً بالعلاقات الاجتماعية التي تجسمت في مظاهر تقوقع الإنسان حول الميديا ووسائل التواصل الاجتماعي الافتراضي.

وهناك من ينادي بحوار الحضارات والتعايش مع الثقافات ، ولنا في تاريخنا في شواهد دالة على التفاعل والمثاقفة بين الحضارة العربية والحضارات الأخرى كما أسلفنا. ففي ضوء هذا التعايش والتواصل استطاعت الحضارة العربية أن تكون بارزة كعلامة فارقة بين الحضارات الأخرى ، إبان الخلافة العباسية ، وانتشار العلوم والفلسفة والتصوف وعلوم الرياضيات والكيمياء والأدب شعرًا ونثرًا ، وهذا

يعني أنه كلما كانت حضارة الأمة قوية استطاعت أن تبسط ثقافتها جغرافيًا عبر الزمان والمكان.

إن المتابع الحصيف لا يمكن له أن يتغافل عما للشعوب من ثقافات متنوعة ومتعددة ، كما لا يمكن للتاريخ أن يتجاهله ، فهذا جزء من هويتها التي تسعى من خلالها إلى الحوار مع الآخر ، وهذا ما يحاول الكثير القيام به ، من خلال الفنون والآداب والعلوم الإنسانية المختلفة ، حيث "الالتقاء الثقافي للبشرية والقبول المتزايد للقيم والعقائد والاتجاهات والممارسات ، والمؤسسات المشتركة للشعوب في جميع أنحاء العالم"[1]. بل لابد من التفكير مليًا في كيفية تسويق الثقافة. ففي الوقت الذي نطالب التجار والاقتصاديين تسويق منتوجاتنا من السلع الغذائية والكمالية والاستهلاكية ، فلماذا لا نسوق منتوجنا الإنساني المنبثق من المنجز الثقافي والأدبي؟ أليس هناك الآن ما نسميه بالثقافة السياحية؟

وما دامت الثقافة منظومة رمزية ، تعبر عنها الأفكار والقيم التي هي عناصر مشتركة بين جميع الشعوب من دون استثناء ، فلا ينبغي أن توضع حواجز الأعراق أو الأديان أو الألوان أو المناطقية أو الجنسانية أو اللغات أو أي شيء آخر تجاه الثقافة ، لأن الثقافة هي نظام إنساني وكوني ، حيث "الهوية الثقافية هي أكثر الأشياء التي لها معنى عن أغلب البشر ، وإن الشعوب تكتشف هويات جديدة

١- صموئيل هنتنغتون، صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، ص١٢٧.

لكنها غالبًا ما تكون قديمة..."[1]. وهذا يعني أن العلوم الإنسانية عامة، والأدبية بخاصة، قادرة على فعل هذا الدور، كالشعر المسرح والسينما والرواية والقصة والحكاية والدراما والفن التشكيلي والفوتوغرافي، والدراسات الاجتماعية والانثربولوجية وغيرها.

إن طبيعة المجتمعات الغربية وأسبقية التطور الذي طرأ عليها في مسيرتها التاريخية جعل الأنا العربية تعيش المفارقة الثقافية والاجتماعية تجاه الآخر، فالرجل العربي صدم حينما حصل على فرصة السفر للدراسة في المجتمع الغربي، ودهش من ممارسات وسلوكيات كانت تمارس في الغرب، يؤكد عليها ديننا الحنيف.

وقد بيّن ذلك رفاعة رافع الطهطاوي حينما ذهب إلى فرنسا فقال: وجدت إسلامًا من دون مسلمين، وهنا في مصر (والمقصود العالم العربي والإسلامي)، وجدت المسلمين ولم أجد الإسلام، مما يعني وعي الفرد بمسؤوليته الاجتماعية وفق قواعد التعايش الاجتماعي والروحي وضمان حقوقه. وما لا يكاد يراه الفرد العربي في بلاده، على الرغم من التشريعات والنظم والقوانين الإسلامية الداعية لذلك. وهنا نجد أنفسنا أمام أسئلة تتصل بما نمارسه في حياتنا وتعاملاتنا اليومية التي تقترب في أشكالها من الكذب حينًا والنفاق حينًا آخر، والطعن في الآخرين حينًا ثالثًا، والمراوغة أحيانًا.

وفي الوقت نفسه فإن هذا لا يعني أن الغرب منزه من هذه

١- صموئيل هنتنغتون، صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، ص٧٠.

الممارسات، إلا أننا لابد من أن نطرح على أنفسنا هذه الأسئلة لنعرف موقعنا أمام الآخر، فهل- نحن العرب- مشغولون بالقراءة؟ وهل الاطلاع عادة لدينا أم هو فعل تسلية؟ هل نحاول جعل القراءة سبيل وعينا تجاه مجتمعنا ومجتمعات الآخرين؟ هل نشجع على الكتابة؟ هل نحفز الكاتب وندعمه؟ هل نقف مع الفنان صاحب الموقف الإنساني ونعاضده ليستمر في طريق عمله الفني، أيًا كان نوعه؟ هل تقوم المؤسسات الحكومية والأهلية ذات الشأن الثقافي بدورها الفعلي تجاه المبدع والمجتمع؟ أين دور الترجمة في نشر ثقافتنا العربية؟ أين دور المراكز الثقافية والملحقيات في دول العالم، وما تقوم به من عمل يسهم في تقديم الصورة المثلى لمشهدنا الثقافي والحضاري العربيين؟ وكيف تبنى تكشف الفوارق والتباعد بين التشريعات الإسلامية والجماعات المتطرفة، وغيرها من الأسئلة التي باتت ملحة في يومنا هذا من أجل تصحيح ما أخذ عنا من نظرة تسيء لنا جميعًا نحن العرب والمسلمين.

المبحث السادس

هل نحن بحاجة إلى التنوع الثقافي؟

تشير كلمة التنوع في الأساس إلى التعدد والتباين، وهذا يعني أن هناك أنماطًا مختلفة، قائمة وسائدة داخل المجتمعات الإنسانية، المتعددة في الأجناس والأعراق والهويات والديانات واللغات. ولكي تكون هذه المجتمعات متخلقة بالإنسانية حقًا، فإن عليها أن تجعل من هذا التنوع حالة صحية لا مَرَضية، عبر التواصل والتبادل والإبداع والاستمرارية في الحياة وبناء المجتمعات، وإذا كان التنوع الثقافي مصطلحًا أو مفهومًا، وقد ارتبط بالدراسات الاجتماعية والثقافية، فهذا يعني أنه مفهوم قائم على الاختلاف والتباين والمفارقات الثقافية التي تحكمها بعض النظم الاجتماعية، والأنماط الثقافية في المجتمعات الإنسانية، الأمر — إذا كنا مؤمنين بأهمية هذا التنوع — وهو شيء مؤكد بالنسبة لنا، فإنه يدعونا إلى ضرورة إحداث التقدير لكل الثقافات وما تمثله من هويات أو أفكار أو أيديولوجيات أو تطلعات، وكذلك الأجناس والألوان والمعتقدات المختلفة الدينية والعقائدية وغيرها.

وعليه فإن التنوع الثقافي هو ما يحتضنه المجتمع من تراث إنساني مادي ومعنوي، ماضيًا وحاضرًا ورؤية مستقبلية، تؤمن بالتغيير والتحوّل والتطوير، وتؤمن بقبول الآخر اجتماعيًا وثقافيًا ودينيًا

وعرقيًا ، وكل ما فيه من التباين ، لما لهذا كله من مصلحة مجتمعية عامة ، وهذا ما أكده المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم الثقافة(إيسيسكو) الأستاذ عبدالعزيز بن عثمان التويجري حين قال: "إن تعزيز التنوع الثقافي يوفر الأسباب لتقوية وشائج التعاون الدولي وذلك من خلال الحوار والتقارب بين الثقافات الذي ينتهي إلى التحالف بين الحضارات من أجل بناء مستقبل آمن ومزدهر للإنسانية".

وكما أكدت ذلك من قبل السيدة إيرينا بوكوفا المديرة العامة لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة ، (اليونسكو) حين أعلنت "أن سنة ٢٠١٠ هي السنة الدولية للتقارب بين الثقافات"[١] ، وقبل هذا وذاك فإن الله سبحانه وتعالى أكد في كتابه المجيد على أهمية التقارب والتنوع والتلاقي ، فقال: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير)[٢] ، أي أن التواصل الثقافي والتعايش داخل فيه ، حيث التلاقي مع الآخر يعطينا شرعية التواصل والاعتراف والتبادل لما لكل هذا من ميزات حضارية وثقافية وعلمية واجتماعية ، مع القيام بإزالة كل العقبات التي ربما يثيرها مناهضو هذا التنوع.

وتؤكد كل التعاليم في الديانات السماوية والوضعية على أهمية التعارف والتواصل والتقارب والتعايش السلمي بين البشر ، يعني

١- مركز انباء الأمم المتحدة.

٢- الحجرات، آية:١٣.

حدوث مبدأ التسامح الديني والمذهبي ؛ لأنها جاءت رحمة وسعادة وحياة مثلى للإنسان. وليس نزول الديانات السماوية أو حتى الوضعية من أجل عذاب الإنسان ، أو إهانته أو للتقليل من شأنه وكرامته ، بل حقيقة الأمر والقصد هنا ، هو التنوع الثقافي الذي يعتبر حقًا شرعيًا من حقوق الشعوب القاطنة والمنتشرة على كل بقاع الأرض مع اختلافها ، وهو ما أكدت عليه ليس الديانات السماوية والوضعية فحسب ، وإنما المنظمات والوكالات الدولية المعنية بحقوق الإنسان الداعية إلى حدوث الطمأنينة ونيل الحقوق ، وتنفيذ الواجبات ، وكلما عاش المجتمع في سلام كلما نذرت المشكلات.

ولا يمكن لنا ربط حالتنا الثقافية بقيد من الهوية العرقية أو القومية الناقصة أو من خلال دين ما في وقت تنتشر في المكان نفسه أديان أخرى. لهذا هناك الكثير من الناس الذين وضعوا أقدارهم المجتمعية والحياتية بعد الله سبحانه وتعالى ، في يد بعض رجال الدين ، "فبقدر ما تسود التنشئة الدينية التي تدعو إلى الطاعة والامتثال ، يفقد المؤمن القدرة على اتخاذ المبادرة والقيادة والعمل على استشراف المستقبل ، وقد يرى المؤمن نفسه فاضلاً بقدر ما يرضخ ويقبل بالأمر الواقع ، ويستسلم لمشيئة غير مشيئته ، وبتعطيل طاقة الإبداع ، كثيرًا ما ترتاح الغالبية العظمى من الناس إلى اللغة الجاهزة ، وإلى التكرار والتبسيط والطقوسية"[1].

١- حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية، ص١٢٦.

وإذا كان الحوار هو أحد المداخل لهذا التقارب ، فهناك أدوار لمجالات أخرى في مسألة التقارب الإنساني من جهة ، والتنوع الثقافي من جهة أخرى ، كالأعمال الاجتماعية ، مثل: بعض مؤسسات المجتمع ذات النفع العام ، كالجمعيات الخيرية أو النسائية أو الصحية ، والأعمال الفنية (المسرحية والسينمائية والدرامية ، والفنون التشكيلية المتنوعة والنحت والتصوير وغيرها من الإبداعات الإنسانية) ، وكما لهذه الفنون جسور من التواصل والتقارب ، فإن للكتابات الإبداعية الأدبية الشعرية والسردية جسورًا أيضًا.

ولكن هل تساءلنا في عالمنا العربي بكل مؤسسات المدنية عامة ، والتي تطالب بحقوق الإنسان المشروعة ولا يختلف عليها اثنان بشأنها ، لماذا العالم "يملك لائحة حقوق الإنسان العالمية ، ولا يملك لائحة تكاليف (واجبات) الإنسان العالمية ، إذ لو تقرر أن يقوم المجتمع على الحقوق فقط ، فإن ذلك سيعرضه للانهيار ، فمن الضروري وجود توازن وتعادل بين كفتي الميزان للحقوق والتكاليف"[1].

إن كل ثقافة ينبغي أن تكون منسجمة مع ذاتها الفردية والجماعية ، ومن خلال هذا الانسجام تبدأ في إبراز السلوك الاجتماعي والثقافي لدى الأفراد في عالمنا العربي ، لكن ما يطرأ اليوم من حالات قد يراها البعض أنها حالات ثقافية منسجمة إلا

١- عبدالكريم سروش، التراث والعلمانية، ص٧٤ و ٨١.

أن قـراءة واعيـة وفاحصـة للمشـهد العربـي السياسـي والثقـافي والاجتماعي والاقتصادي نجد أن الانسجام غير واضح المعالم ، أو لنقل غير موجود ، وذلك بسبب تغلغل ثقافة المكان الواحد دون الأمكنـة الأخـرى ، وثقافـة العـرق الواحـد دون الأعـراق الأخـرى ، وثقافة الدين الواحد دون الأديان الأخرى ، وثقافة الطائفة الواحدة دون الطوائف الأخرى ، وثقافة اللغة الواحدة دون اللغات الأخرى.

وهكذا فإن تسيس الدين يشكل خطرًا على المجتمعات قاطبة ، ويخلخل علاقاتهم الاجتماعية والثقافية وبخاصة حينما يكون نظام دولة ما منبثق من مبادئ دين يفرض على جميع أفراد هذا المجتمع على الرغم من التعدد الديني والمذهبي والاثني والقومي ، مما يسبب هـذا الانشـطار الـذي يـدعي أنـه في بوتقـة الحاضـنة الثقافيـة المؤمنـة بالتنوع ، مؤديًا إلى تفتيت بعض المجتمعات وانهيار بعضها الآخر.

ومن المعضلات التي ينبغي على المثقف الوقوف عندها وقراءتها قراءة تحليلية وتفسيرية ممارسته النقدية للواقع المعيش ، إن كان نقدها موجهًا للواقع الاجتماعي والسياسي وغيرها من الحالة المعيشية ، أم هذا النقد موجه إلى تلك الأفكار التي باتت معشعشة في العقل والتفكير عنده وعند أفراد المجتمع ، إذ بهذا فهو لا يسعى إلى تطوير المجتمع وتنويره بقدر ما يسعى إلى فرض أفكار غير موضوعة للنقد والتجربـة ، وهـذا مـا يسـتدعي المراجعـة في آليـة الـتفكير ، وطرائق التغيير ، وأساليب العمل التنويري ثقافيًا واجتماعيًا.

وهذا يتطلب منا جميعًا وقفة صريحة لمحاورة العقل العربي المنتج

للأفكار والرؤى ، لما تفرض عليه وقائع الحياة ومتطلباتها ، أن يواجه جل القضايا العربية المصيرية لتفكيك مفاهيمها وتحليلها ؛ لأن العقل العربي كما يشير حسن صعب القضية الحضارية الأولى التي تتوقف عليها مواجهتنا لجميع قضايانا المصيرية ، فهو الذي يوفر لنا الإدراك الحقيقي للمعطيات العقلية لعملية تقرير المصير ، وهنا لا يعني إثارة تحديث العقل العربي إثارة نظرية ، بل إثارة تطبيقية وظيفية ، قوامها وعي الصلة الحركية العضوية بين الفكر والحياة"[1].

وعلى الرغم من تواصل العالم ثقافيًا وحضاريًا منذ قرون خلت ، فإن السياسة لم تساعد على هذا التواصل ، وإنما حاربته بعدة طرائق ووسائل ، فمرة باسم اللغة والمحافظة عليها ، ومرة باسم عادات المجتمع المحافظ ، ومرة باسم الاطماع ، لكن أكثرها قوة ، تلك التي أدخلت السياسة فيها العديد من الدول في حروب باسم الدين ، وحاصرته باسم التعصب المتعدد ، وكتب التاريخ والتراث ، والأدب شاهد على ذلك ، كما ظهر في إسبانيا على مدار تاريخها وحضارتها ، حيث الحروب التي دارت وأسهمت في دخول الإسلام ، ثم التقهقر ، ومحاربة الإسلام والمسلمين ، فضلاً عن اليهود ، والبقاء على الدين المسيحي.

وهذا ما كشفته الكثير من الأعمال الإبداعية والتاريخية التي تناولت المذابح والتشريد والتهجير ، بعد زرع الخوف ، وعدم

١- محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، ص٤٣.

الاطمئنان ، والتفكير في اللجوء لمكان آخر أكثر استقرارًا وحماية ، كما تظهر في سلوك القشتاليين ، وممارسة العنف ضد من يخالفهم في الدين والعقيدة ، وهو عنف ثقافي سياسي مغلف بإطار اجتماعي ومرجعية دينية ، برز من خلال التشريعات والقوانين السياسية في ذلك الوقت ، والسعي إلى تهميش المختلفين عنهم دينًا وعقيدة وثقافة.

وفي الوقت الذي أقرت فيه الجمعية العامة للأمم المتحدة بأن يكون عام(١٩٩٥) عامًا للتسامح ، وعام(٢٠٠٠) عامًا لثقافة السلام ، وعام(٢٠٠١) عامًا للحوار بين الحضارات ، فقد حدث فيه ما لم يكن في الحسبان لدى العالم كله ، وهو ضرب البرجين بأمريكا في هذا العام ، مما جعل العالم يعيش في حالة ذهول ودهشة واستغراب ، وصدمة حضارية وفكرية ووجدانية ، وفرض هذا الهجوم ثقافة الإقصاء والسؤال المحكوم بقرار حاسم تجاه دول دون غيرها ، وعاش العالمان العربي والإسلامي حالة بؤس وشقاء ، لما برز إثرها من رؤية غربية تجاه الإنسان المسلم عامة ، والعربي بوجه خاص ، وأوكل بعض الكتاب والصحفيين أنفسهم لطرح هذا التباين في الوعي والثقافة وتربية الأجيال ، وانبرى كذلك بعض المبدعين العرب للدفاع عن الإنسان العربي ، وبيان الموقف بين التسامح والتشدد عربيًا وغربيًا.

لكن ثقافة الجماهير آنذاك كانت هي الأقوى ، وهي التي تملك القدرة على إحداث الحراك ضد أو مع ، فاستطاعت عبر فتيل بعض

الأقلام ممارسة التشدد والتطرف ، كما ظهر ذلك في بعض الأعمال الإبداعية الروائية في منطقة الخليج العربية ، مثل: رواية سعاد للكاتبة الكويتية بثينة العيسى ، ورواية سيقان ملتوية للكاتبة السعودية زينب حفني.

وهذا لا يعني الفصل والابتعاد الكلي بين الحضارات والثقافات ، فقد كانت حضارة بلاد الفرس ، وبلاد الروم ، وبلاد الهند حاضرة من خلال الترجمة في الثقافة العربية منذ الخلافة العباسية ، واستمر هذا التواصل إلى يومنا هذا ، بل إن الشرق العربي والآسيوي كان حاضرًا بثقافته المتعددة والمتنوعة في عوالم الحضارة الغربية منذ القدم. ولقد دشن "التاريخ الرسمي لبدء الاستشراق في صدور قرار مجمع فيننا الكنسي عام١٣١٢ ميلادية والقاضي بتأسيس عدد من كراسي الأستاذية في العربية واليونانية والعبرية والسريانية في جامعات باريس وأكسفورد وبولونيا وأفينيون وسلامنكا"[١].

ومهما حاول البعض في المجتمع المهتمون بالثقافة أن يدعون لأهمية الثقافة بوصفها زادًا معرفيًا ، تبقى لدى البعض أيضًا سواء كانوا أفرادًا أم جماعات أم فئات أم شرائح حساسية الدخول في ذلك المفصل المجتمعي ، والعلاقة بين الجديد وما يحمله من تطلعات ، وبين القديم وما له من تراث بات بعضه غير صالح لحياة

١- سهيل عروسي، حوار الحضارات بين الواقع والطموح، ص٩٥.

حاضرة فكيف سيكون لاستشراف المستقبل! ولكن هذا لا يعني أن الذهاب إلى الجديد هو طمس للقديم ، وإنما ينبغي أن تكون العلاقة بينهما تشكل مساهمات معرفية لتطوير المجتمع.

وعلينا هنا أن نتساءل حول ما يريده هذا الإنسان البسيط الذي غطته علامات الحزن ، ليتشرب الألم بكل لحظة ، ويغتسل العذاب بين الحين والآخر ، ويحلم بعالم مجهول في هويته وطبيعته ومناخه ، وبخاصة أن "الثقافة تشكل عاملاً حاسمًا وموحدًا في آن واحد ، فالشعوب التي تفصلها الأيديولوجيا توحدها الثقافة فتلتقي معًا على طريق واحد ، كما حصل مع الدولتين الألمانيتين في الغرب ، والكوريتين في الشرق ، أو أن تلتقي المجتمعات التي وحدتها الإيديولوجيا أو الظروف التاريخية ولكنها قسمتها الحضارة ، كما حدث في الاتحاد السوفييتي والبوسنا ، أو تظل رهينة التوتر العنيف كما هو الحال في نيجريا وسيرلانكا...."[1].

كل شعب أو منطقة أو مرحلة من التاريخ لها مناخها وظروفها واختياراتها التي تسهم في بلورة أفكارها وثقافتها المنبثقة من الدين والعادات والأعراف وما شابه ذلك. من هنا يحدث التمايز والتباين والتنوع في المشهد الثقافي ، "الثقافة تمكّن الإنسان لا من التأقلم مع محيطه فحسب ، وإنما من تأقلم المحيط معه أيضًا ، ومع حاجاته

١- صموئيل هنتنغتون، صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، ص٧٥- ٧٩.

ومشاريعه ، أي أن الثقافة بتعبير آخر تجعل الطبيعة ممكنًا"[1].

وما يدلل على ذلك أن المنطقة العربية عامة راضية بهذا التأقلم ، وأرضها خصبة لهذا التلاقي والتنوع ، وكذلك سكانها راغبون في هذا التواصل ، وما تلك الهجرات التي انطلقت من المنطقة العربية إلى بقاع العالم شرقًا أو غربًا أو جنوبًا ، أو تلك الهجرات التي حدثت في منطقة الخليج العربية متجهة إلى بعض الدول العربية أو الأجنبية إلا دليل واضح على ما تؤمن به الشعوب قاطبة من هذا التمازج.

وإذا كان هناك بعض العائلات التي فضلت العودة إلى المنطقة العربية ، فهناك من بقي حتى هذه اللحظة. بل هناك من له من الاستثمارات والأعمال الاقتصادية والتجارية ، وفي الوقت ذاته هناك عائلات عربية وأجنبية فضلت أن تستوطن المنطقة الخليجية أيضًا ، وبقيت حتى هذه اللحظة. وفي كلتا الحالين فإن الترحال والهجرات تحمل معها الموروث الثقافي والاجتماعي ، واللغات والأديان ، مما ينتج عنه نوع من التمازج الذي يفتح آفاقًا مع الآخر ، وعالمًا إنسانيًا يتقبل بعضه بعضًا في شتى مجالات التنوع الثقافي والاجتماعي والديني والعرقي واللوني ، وغيرها من الأمور التي برزت في الآونة الأخيرة على أنها حالات مقيتة ، وغير مفيدة للمجتمعات ، بحكم قصر النظر ، وأحادية الرأي.

١- دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ص١٠.

الخاتمة

المثقف وأفق الانعتاق

لا ريب عندي في أن الكتاب العرب لديهم الاستعداد لحل أي تباين في نسج العلاقات الثقافية بيننا كعرب وبين الآخر ، فحين "نرتقي بإنسانية الإنسان ينبغي أن نتبنى قيمًا حضارية أنجزتها الأمم جميعًا مما يؤسس لمد جسور التفاهم بين البشر بعيدًا عن الهويات القاتلة"[1] ، نحن بحاجة إلى معرفة طبيعة التحولات الفكرية التي أسهمت في هذا الحراك من قبل الشرائح المثقفة ، بحاجة إلى المزج بين الواقع المعيش والحقيقة الماثلة أمامنا ، بحاجة إلى تبرير هذه الكتابات التي تقف مع أو ضد ، تبريرًا منطقيًا أو على الأقل موضوعيًا ، نحن بحاجة إلى قراءة وعي الإنسان العربي بعد كل ما جرى على العالم العربي وأضعف بناه المختلفة ، وخلخل النسيج الاجتماعي ، وأثر ذلك في المسيرة الثقافية والنهضوية التي كان المثقفون يحلمون بها.

وإذا كان الاتصال الثقافي في القديم تشكل وتمظهر بعد الصراعات ، فاليوم ينبغي أن يقوم على القواسم المشتركة ، والصلات المتقاربة ، والمصالح الثقافية المتجانسة ، لا على التعنت

١- ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر – نماذج روائية عربية، ص٢٣.

والتطرف والمناداة ببعض الأفكار والمفاهيم والقيم التي ترضي طرفًا دون آخر. ولا شك أن هناك طموحات كثيرة تختلج في نفس كل مهتم بهذه الأرض العربية ، ومن يشتغل بالثقافة تحديدًا. لذلك ينبغي ألا نجعل من هذا التنوع الثقافي في المجتمعات العربية بؤرة للمشاحنات المذهبية ، والخلافات العقائدية ، والتباينات الطائفية ، والازدراءات العرقية ، أو اللونية ، والتقليل من الأقليات ، وألا نعيش في بوتقة الانغلاق الجغرافي أو الثقافي ، أو الوقوف على تلك الدمن والأطلال التي عفى عليها الزمن وباتت مدفونة في الذاكرة الثقافية العربية والاجتماعية ، الأمر الذي يدعونا إلى القول بأن كل مثقف عليه أن يكون واعيًا لدوره المتمحور بعلاقته بالتاريخ والماضي ، وبقراءته قراءة فاحصة ، وبالحاضر ، وكيف يعيش مجتمعه ، وبالمستقبل.

وحينما نعمل على تحقيق طموحات أبناء الوطن العربي ، وتطوير المجتمع ، فإن هذا رهان يتجه إلى الشباب حيث إنه رهان غير خاسر إذا أتقنا كيفية مواجهة التحديات ، ونمينا مهاراتهم ، وطاقاتهم ، وحفزنا قدراتهم التخصصية ، وفي الوقت نفسه يتم السعي إلى القضاء على عقد الخوف والتوجس من طبيعة المثقف ودوره في المجتمع ، وكذلك أن تفتح المؤسسات المجتمعية الحكومية والأهلية المعنية بالشأن الثقافي والأدبي والعلمي والتقني وكل ما يطور المجتمع أبوابها وقنواتها المتاحة أمام الراغبين في البحث والدرس مع تقديم الدعم المادي والمعنوي لهم.

أي لابد من بناء العقول لما لها من أهمية في تعديل السلوك الفردي والجماعي ، وتنمية الوعي ، والتأكيد على المكتسبات الثقافية والمعرفية المتنوعة ، بل السير قدمًا نحو الحداثة التي تلامس كل ما يحيط بالإنسان فكريًا وماديًا ومعنويًا وعاطفيًا ، والابتعاد عن ثقافة التهميش والاقصاء فهي ثقافة مزرية تقتل طموحات الوطن وأفراده ، وتفسد الظواهر الثقافية كالقراءة الواعية والصريحة والناقدة ، لذلك ينبغي أن تكون من ضمن أجندة المثقف الواعي الحريص على مجتمع وتطوره والراغب في تحديث الوعي والفكر عند أفراد هذا المجتمع أو ذاك عليه أن يكون حاضرًا موضوعيًا في تلك الأفكار أو النصوص التي يكتبها وما تحمله من مسحة سجالية تسهم في بلورة الأفكار وتسيير العمل تجاه البناء في الوطن.

وفي الإطار ذاته فإن المثقف لا ينبغي عليه أن يحصل على منجزات الفكر الغربي ، أو الدول المتقدمة لكي يقوم بالبناء والتعمير والتطوير وفق لهذه المنجزات ، وإنما عليه أن يدخل في طبيعة الفكر والنظام الفلسفي والأنساق الثقافية ، وآليات التفكير حتى يتمكن من تحقيق ما يطمح إليه ، بمعنى آخر لابد من الانفتاح باقتناع تام لما يحمله عصرنا الحاضر من تغيرات وتحولات وتحديثات مستمرة ، وأن العالم المتقدم لا يقف عند محطة معينة ، ولكنه يسير بثورة علمية وتكنولوجية وثقافة تجدد المفاهيم وتطور مسيرة التقدم ، حيث القيم الثقافية تعمل على تحديد الفكر العلمي والإبداعي والتقني وطبيعة الابتكارات المتعددة ، لذلك لا يمكن

شراء أو نقل أي منجز من المنجزات العملية إلا بوجود مدخل ثقافي يفهم حالة هذا التطور والتغير وحالة المجتمعات المعنية به.

لا تتم المراجعة بالعودة إلى الماضي أو قراءة سريعة للواقع المعيش ، وتلك النتائج التي ترتبت عليها ، وإنما لا بد من قراءة واعية فاحصة مؤمنة بدور المثقف والفرد معًا في تحسين الوضع ، وتقديم الرؤى ، وإن كانت بسيطة ، وأن يكون هناك تقدير واحترام لمن يقدم ذلك وبالتحديد فئة الشباب الذي فرضت عليه الظروف أن يكون مهمشًا ، ولابد من إعطاء هذه الفئة العمرية المسئولية الفردية والجماعية ليكون قادرًا على تنمية قدراته ومواهبه ، تجريب قدراته من أجل دفعه إلى إدارة دفة الحياة والعمل وفق المبادئ الإنسانية ، وليس وفق أجندات معينة ذات طابع فئوي أو مذهبي أو عرقي أو عبر الثقافة الأحادية سواء أكانت تلك الأجندات من الداخل أم من الخارج.

حينما نراجع ذواتنا ومشروعاتنا وتطلعاتنا ومناداتنا بالحقوق ، فلا ينبغي للمثقف أن يحصر دوره وذاته في مفهوم المجتمع تجاه هذا الدور ، وفي محيط القائد والمصلح ، والأمين على حقوق أفراد المجتمع ، والمدافع عن القيم والمبادئ ، وعلينا أيضًا أن نفكر مليًا من خلال طرح الأسئلة على أنفسنا ، وهي عملية علمية مهمة ينبغي القيام بها بين الحين والآخر إذا رغبنا في التطوير والتحديث ومواكبة الواقع العالمي في مجالاته المختلفة ، ومن هذه الأسئلة:

-هل نحن نمارس دورنا الحقيقي في الحياة والمجتمع وفق قيم

إنسانية تسهم في بلورة العيش بكرامة وحق وحرية ومساواة وعدل واحترام للآخر المختلف عنا دينًا وطائفة وعرقًا ولونًا ومذهبًا؟

-هل فكرنا في كيفية بناء العلاقات الإنسانية التي تشيد جسور المحبة بين أفراد المجتمع ببذور ثقافية؟ والاعتراف بحق الحوار الهادف كحق إنساني؟

-هل فكرنا في نقد المفاهيم التي باتت قوانين وتشريعات نمارسها من دون معرفة كنه دلالاتها بعد ما أصبحت كل طائفة أو جماعة تفسر هذه المفاهيم وفق نهجها السياسي ورغبتها في الحصول على قيادة السلطة السياسية والحكم؟

-هل فكرنا في تلك الفتاوى التي تصدر بين الحين والآخر من رجال دين لهم مكانتهم العلمية ، ومن آخرين هم عالة على المجتمع الديني ولكن لتحقيق مصالح ذاتية أو فئوية أو مجموعاتية حتى اختلطت كل الفتاوى ولم يستطع الرجل أو الشاب البسيط التفرقة بين هذا وهذا؟

-أليست قيم كل الأديان السماوية تدعو إلى تهذيب سلوك الإنسان ، وبناء المجتمع على مبادئ التكافل والتراحم والتسامح والتعايش السلمي ، كما تدعو إلى نبذ العنف ومقت الإرهاب ، والاعتداء على الآخرين أو تعطيل مصالحهم أو الوقوف في مسيرة مستقبلهم العلمي أو المهني أو غير ذلك؟

-أليست المنظمات الدولية أظهرت مواثيق عالمية تعنى بالسلام وبالحريات العامة والخاصة ، الفردية والجماعية ، كحرية التدين ،

وحرية العبادات، وحرية المعتقدات؟ وهنا يكمن دور المثقف في الدعوة المستمرة إلى التقارب والتعايش والتواد، أي الدعوة للحوار بين الأديان، الحوار بين الثقافات، الحوار بين المختلف والمؤتلف.

نريد لثقافتنا المستقبلية أن تكون قائمة ومنتشرة وحاضرة بالقوة التي كانت عليها في السابق، وأن تقاوم التحديات المختلفة التي تعيشها الأمة العربية والثقافة معًا، في ضوء التغيرات الحاصلة للعالم الديناميكي، حيث تحاول الثقافة المهيمنة السعي بقوة والسيطرة على مقدرات الشعوب ذات الثقافة الضعيفة، ليس في بنيتها بقدر ما فيه تعاطيها مع العالم، وعلى الرغم من كل هذا فلابد لكل ثقافة كانت، مهيمنة أو مهيمن عليها، أن تعبر عن نفسها وحاجاتها وتطلعاتها في سياق خصائصها ومميزاتها وحقها في الوجود.

وحين تدافع الثقافة أيًا كانت عن وجودها بالطرق السليمة والتواصل الحضاري، فإن هذا يعكس بلا شك طبيعة من يتمثل هذه الثقافة، بل لا بد أن نعمل على يتجاوز "الوعي التاريخي حدود الوعي السياسي من جميع الوجوه، وأن تصدر النظرة السياسية عن وعي مجتمعي تاريخي حضاري"[1]، بل لابد من نقد العقل العربي الذي كان ولايزال حاصرًا نفسه في دائرة التناقض في الكثير من القضايا، ومتقوقعًا في المسلمات للكثير من الأفكار الجاهزة.

١- ناصيف نصّار، نحو مجتمع جديد، ص١٥.

وهذا لا شك يؤدي إلى انحسار حقيقي للفكر العربي النقدي مما يسبب تراجعًا كبيرًا في مجال الإبداع والابتكار في المجالات الإنسانية والعلمية والتقنية ، بمعنى آخر أننا بحاجة إلى احترام التنوع والتعدد في الهويات الثقافية المنطلقة من التعدد القومي والاثني والديني والطائفي والعرقي ، ولابد من الاهتمام بطبيعة الثقافة والمجالات المشتركة بين كل هذا التنوع.

كما نحن بحاجة إلي العمل على المساعدة الحقيقية في تحسين معرفتنا وتطويرها ، ونشرها في الأقطار العربية من خلال مجموعة من القنوات الرسمية وغير الرسمية كجامعة الدول العربية وإداراتها المختلفة ، والمجالس الوطنية والقومية ذات الشأن الثقافي ، وعبر الوزارات المعنية بالثقافة والإعلام ، بالإضافة إلى نشرها عن طريق الوسائل الإعلامية والوسائط المتعددة والمتنوعة من فضائيات وإذاعات وصحافة مقروءة ومنصات التواصل الاجتماعي.

إننا بأمس الحاجة إلى وضع الخطط والبرامج التي تهتم بنقل التراث ونشره بين الدول ، وبيان أهميته ودوره في تنمية روح الانتماء الحقيقي للأرض والحضارة والتراث ، ودوره في تكريس البعد الثقافي وتبادل الدول بعضها البعض رسميًا وأهليًا ، وبشكل جماعي وفردي ، وفي الوقت ذاته أن تضع كل الدول العربية من دون استثناء أهمية نشر النتاج الفكري والثقافي والأدبي بين هذه الدول مع تكريس مبدأ الدعم المادي والمعنوي ، حيث إن كل هذا يسهم في المزيد من تنمية الحوار الثقافي المشترك ، والعمل على إقامة

المحافل الثقافية والأدبية والتقنية وغيرها ، تلك التي تؤكد باستمرار القناعة التي تقول بأهمية التنوع الثقافي.

-من هنا فإن علينا أن نعمل معًا ، على بناء جسور ثقافية متينة ، بين ما لدينا في المنطقة العربية ، من تراث إنساني ، مع كل الثقافات الأخرى شرقًا وغربًا ، جنوبًا وشمالاً ، من أجل الوقوف على ما نحن فيه من جهة ، والعمل على تغيير النظرة السلبية من قبل الآخر ، تجاه الفرد العربي من جهة أخرى ، سواء في تراثه المادي أو المعنوي ، أو في ثقافته المختلفة ، أو في مدى قبول الآخر به ، ليكون فردًا مقبولاً في المجتمعات الأخرى ، بل هناك من يرى أن الثقافة ينبغي أن تكون في كيان الإنسان وشخصيته ، وليس في الكتابة وفي الأقوال كما أشار إلى ذلك هربرت ريد[1].

ويكمن هذا إذا رغبنا في تقدم مجتمعاتنا وتطويرها من خلال المعرفة والصناعة والعمل الاجتماعي وتحمل المسئوليات الفردية والجماعية ، والعمل على نشر مبادئ التسامح ونبذ الطائفية والتفاخر أو التنابز بالأعراق والأنساب ، أي أليس من الأجدى ونحن على هذه الأرض العربية أن نعمل معًا وفق مبادئ التعايش والتواصل والتقارب ، والابتعاد عن مناداتنا بالقومية الضيقة نتج عنها عبر سنوات ولايزال العديد من المشكلات الحدودية والعرقية والمذهبية ، وعززت تقوقع

١- فؤاد زكريا، خطاب إلى العقل العربي، ص١٧.

الأقليات والطوائف في حدود ضيقة مكانيًا وثقافيًا وتعايشًا.

وحين يأتي نؤكد على مبادئ تعايشنا ، فإنَّ الجميع له حق العيش بأمانٍ واطمئنان وسلام. سواء أكان هؤلاء الذين يعيشون على الأرض العربية هم(العرب أم الكرد أم الإزيديون أم الأرمن أم الشركس أم غيرهم من الطوائف التي استقرت قديمًا أو حديثًا) فضلاً عن معتنقي الديانات السماوية والوضعية الأخرى ، وأن كل المواثيق والشرائع الدولية المعنية بحقوق الإنسان تؤكد على ما نطرحه ، وهنا أشير إلى ما قاله بطرس البستاني بأن "الوطن هو الحقيقة التي ينبغي أن يأتلف فيها أبناء الطوائف المتناحرة"[1].

وهذا يعني أننا بحاجة إلى كتابات تنظر إلى الواقع المعيش ، بوصفه عتبة ترتبط بالقيم الإنسانية الحية والمشتركة مع العتبات الإنسانية الأخرى ، بغية تجديد الخطاب الثقافي الذي نحمل عبئه على أكتافنا ، ونسعى إلى تجديد الأطر الثقافية التي تحدد مساراتنا في الحياة ، على أن نعمل على تحرير فكرنا من التقليدية والاتباع ، وأن ننظر بجد إلى أن "الثقافة في الأصل متغيرة الخواص ، وهي نتاج التداخل الإنساني في العمليات البيولوجية للطبيعة ، وهي تحرر وتقيد في آن واحد ، وهي نتاج مجتمعات خطاب لها ظروف اجتماعية وتاريخية ، وفي الوقت نفسه تمثل اللغة لأية ثقافة ولأي مجتمع الإنجازات المادية بوصفها ميراثًا اجتماعيًا ورأس مال رمزي"[2].

١- ناصيف نصّار، نحو مجتمع جديد، ص٢٢.

٢- انظر: كلير كرامشي، اللغة والثقافة، ص٢٥- ٢٦.

المراجع

١. القرآن الكريم: الحجرات، آية:١٣.

٢. أحمد الفلاحي، حول الثقافة، دار الانتشار العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٧.

٣. أدونيس، مقدمة للشعر العربي، دار العودة، بيروت، ط٤، ١٩٨٣.

٤. إدوارد سعيد، الآلهة التي تفشل دائمًا؛ تر: حسام الدين خضور، التكوين للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠٠٣.

٥. إدوارد سعيد، السلطة والسياسة والثقافة؛ تر: نائلة قلقيلي حجازي، دار الآداب، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.

٦. أرثر أيزابرجر، النقد الثقافي – تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسة، تر: وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسي، المشروع القومي للترجمة (٦٠٣)، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣.

٧. أمارتين صن، الهوية والعنف – وهم المصير الحتمي؛ تر: سحر توفيق، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة – ٣٥٢، ط١، يونيو٢٠٠٨.

٨. إبراهيم غلوم، الثقافة وإنتاج الديمقراطية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١،٢٠٠٢.

٩. آدم كوبر، الثقافة والتفسير الأنثروبولوجي، تر: تراجي فتحي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة – ٣٤٩، ط١، مارس ٢٠٠٨.

١٠. بريان باري، الثقافة والمساواة – نقد مساواتي للتعددية الثقافية؛ تر: كمال المصري، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة – ٣٨٢، ط١، ج١، نوفمبر ٢٠١١.

١١. بهيجة إدلبي، الأدب التفاعلي وحوار الثقافات، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، ط١، ٢٠١٤.

١٢. بيار ماشيري، بم يفكر الأدب – تطبيقات في الفلسفة الأدبية، تر: جوزيف شريم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠٠٩.

١٣. تيري إيجلتون، فكرة الثقافة؛ تر: ثائر ديب، دار الحوار لنشر والتوزيع، سوريا، ط١، ٢٠٠٠.

١٤. جابر عصفور، نحو ثقافة معاصرة، مكتبة الأسرة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨.

١٥. جامعة كل المعارف، ما الثقافة؟، إشراف إيف ميشو؛ تر: مجموعة من المترجمين، المشروع القومي للترجمة – العدد ١٠١٨، القاهرة، ط١، ج٦، ٢٠٠٦.

١٦. جون إهرنبرغ، المجتمع المدني – التاريخ النقدي للفكرة، تر: علي حاكم صالح وحسن ناظم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.

١٧. جيرار ليكلرك، سوسيولوجيا المثقفين، تر: جورج كتورة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.

١٨. جيرار كيكلر، العولمة الثقافية – الحضارات على المحك؛ تر: جورج كتورة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٠٤.

١٩. حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية – متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠٦.

٢٠. دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية؛ تر: منير السعيداني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠٠٧.

٢١. زكي الميلاد، المسألة الثقافية من أجل بناء نظرية في الثقافة، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط٢، ٢٠١٠.

٢٢. سعد البازعي، الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.
٢٣. سعد البازعي، قلق المعرفة – إشكاليات فكرية وثقافية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ٢٠١٠.
٢٤. سهيل عروسي، حوار الحضارات بين الواقع والطموح، دار الينابيع، دمشق، ط١، ٢٠٠١.
٢٥. صموئيل هنتنغتون، صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، تر: مالك أبو شعيرة، ومحمود محمد خلف، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، ط١، ١٩٩٩.
٢٦. عبدالحسين شعبان وآخرون، ثقافة حقوق الإنسان، رابطة كاوا للثقافة الكردية، بيروت، ط١،٢٠٠١.
٢٧. عبدالكريم سروش، التراث والعلمانية – البنى والمرتكزات، الخلفيات والمعطيات؛ تر: أحمد القبانجي، دار الانتشار العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٩.
٢٨. علي حرب، أوهام النخبة أو نقد المثقف، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٣، ٢٠٠٤.
٢٩. علي شريعتي، مسئولية المثقف؛ تر: إبراهيم الدسوقي شتا، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، ط١، ٢٠٠٥.
٣٠. غازي عبدالرحمن القصيبي، العولمة والهوية الوطنية – مقالات، مكتبة العبيكان، الرياض، ط٢، ٢٠٠٢.
٣١. فريدريك جيمسون وما ساوميوشي، ثقافات العولمة، تر: ليلى الجبالي، المشروع القومي للترجمة (٦٦٨)، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤.
٣٢.فؤاد زكريا، خطاب إلى العقل العربي، مكتبة الأسرة، القاهرة، ط١، ٢٠١٠.
٣٣. كلير كرامشي، اللغة والثقافة، تر: أحمد الشيمي، وزارة الثقافة والفنون والتراث، الدوحة، ط١٢٠١٠.
٣٤. كليفورد غيرتز، تأويل الثقافات، تر: محمد بدوي، المنظمة العربية

للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠٠٩.

٣٥. ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر – نماذج روائية عربية، المجلس الوطني للثقافة والعلوم والآداب، الكويت، عالم المعرفة – ٣٩٨، ط١، مارس ٢٠١٣.

٣٦. مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط٤، ١٩٨٤، ص١٣٤.

٣٧. مايك كرانغ، الجغرافيا الثقافية – أهمية الجغرافيا في تفسير الظواهر الإنسانية؛ تر: سعيد منتاق، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة – ٣١٧، ط١، يوليو٢٠٠٥.

٣٨. مجدي وهبة، معجم مصطلحات الأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٩٤.

٣٩. مجلة الدوحة القطرية: (ملف الإرهاب)، عدد٩٠، أبريل٢٠١٥.

٤٠. مجلة العروبة، نادي العروبة، البحرين. عدد١١، فبراير١٩٩٨.

٤١. مجموعة من الباحثين، ارتدادات الربيع العربي – ربيع العرب ما له وما عليه، تحرير: محمد الرميحي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط١، ٢٠١٤.

٤٢. مجموعة من الكتاب، أصوات بديلة – المرأة والعرق والوطن في العالم الثالث، تقديم هدى الصدة، تر: هالة كمال، (معارضة الثقافات: "التغريب" احترام الثقافات ونسويات العالم الثالث لأوما نارايان)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، المشروع القومي للترجمة – ٥٠٢، ط١، ٢٠٠٢.

٤٣. محمد عابد الجابري، إشكالية الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط3، ١٩٩٤.

٤٤. محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٤، ١٩٩٢.

٤٥. محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة

العربية، بيروت، ط٧، ١٩٩٨. (نقد العقل العربي - ١).
٤٦. محمد جابر الأنصاري، تجديد النهضة باكتشاف الذات ونقدها، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٢.
٤٧. محمد محفوظ، الإسلام، الغرب وحوار المستقبل، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٨.
٤٨. محمد منذور، النقد المنهجي عند العرب، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، لا طبع، لا نشر.
٤٩. محمود الربيعي، في نقد الشعر، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط٤، ١٩٧٧.
٥٠. مركز أنباء الأمم المتحدة.
٥١. معجم الصحاح، مادة ث ق ف.
٥٢. معجم المنجد، مادة ث ق ف.
٥٣. موقع شبكة الألوكة للدكتور خالد الجريسي والدكتور سعد الحميد.
٥٤. موقع معابر.
٥٥. ناصيف نصّار، نحو مجتمع جديد – مقدمات أساسية في نقد المجتمع الطائفي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٦، ٢٠١٦.
٥٦. نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات – رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة (٢٦٥)، ط١، ٢٠٠٢.
٥٧. نبيل علي، العقل العربي ومجتمع المعرفة – مظاهر الأزمة واقتراحات بالحلول، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة (٣٦٩)، ط١، ٢٠٠٩.

فهد حسين

دكتوراه في الأدب العربي الحديث - دراسات سردية ونقدية

وسائل الاتصال:

الهاتف: ٠٠٩٧٣ ٣٩٦٣٩٣٦٣

الفاكس: ٠٠٩٧٣ ١٧٠٠٢٨٢٨

البريد الإلكتروني: fahadhussain.bh@gmail.com

الفيسبوك: fahadhussainbh/www.facebook.com

التويتر: fahadhussainbh

الانستغرام: fahadhussainbh

عنوان المراسلة:

ص ب: ٧٠٠١٨ سترة – مملكة البحرين

P.O. Box: 70018, Sitra,
Kingdom of Bahrain

الإصدارات:

١. نص في غابة التأويل(مشترك)، اسرة الأدباء والكتاب، البحرين، ط١، ٢٠٠١.

٢. إيقاعات الذات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٢.

٣. من الأدب الخليجي(كتاب توثيقي)، أمانة عمّان، الأردن، ط١،٢٠٠٢.

٤. المكان في الرواية البحرينية، دار فراديس للنشر والتوزيع، البحرين، ط١،٢٠٠٣.

٥. مسافات الدخول - صورة المرأة في روايات فوزية شويش السالم، دار فراديس للنشر والتوزيع، البحرين، ط١، ٢٠٠٦.
٦. أمام القنديل - حوارات في تقنية الكتابة الروائية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.
٧. بعيدًا عن الظل - التجربة النسوية في منطقة الخليج العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٢
٨. الرواية والتلقي - دراسات في لبعض الروايات العربية، دار فراديس للنشر والتوزيع، البحرين، ط١، ٢٠١٢.
٩. في اتساع الأفق - المشهد الثقافي البحريني - ٢٠٠٠ - ٢٠١٠، كتاب توثيقي، مؤسسة كانو، البحرين، ط١، ٢٠١٣.
١٠. إعداد كتاب حول سيرة الأستاذ إبراهيم حميدان بعنوان (إبراهيم حميدان سيرة ضوء)، الوراقون، البحرين، ط١، ٢٠١٣.
١١. مرجعيات ثقافية في الرواية الخليجية، بيت الغشام للترجمة والنشر، مسقط، ط١، ٢٠١٦.
١٢. السرد الخليجي النسوي - المرأة في الرواية أنموذجًا، دار مسارات للنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ٢٠١٦.

